الباب الثاني

أعلام الشعر في بلاط سيف الدولة

١ أبو الطيب المتنبي

٢ أبو فراس الحمداني

٣ أبو العباس النامي

٤ ابن نباتة السعدي

٥ أبو بكر الصنوبري

٦ أبو الفتح كشاجم

٨ الخالديان أبو بكر وأبو عثمان

٩ السري الرفاء

١٠ أبو الفرج البيغاء

١١ الوأواء الدمشقي

obeikandl.com

obeikandl.com

- ١ -

الباب الثاني

أعلام الشعر في بلاط سيف الدولة

تمهيد :

كان بلاط سيف الدولة ميدان سباق بين الشعراء والعلماء والأدباء فسارع كل شاعر إلى ساحته لينال عطاء الأمير ويحصُلُ على صِلاته ، فكثُر الشعراء في عهد سيف الدولة كثْرة نادرةً فلم يجتمع قط بباب واحد من الملوك بعد الخلفاء كما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر [١] . ولقد ضم بلاطُه أعظمَ شعراء العربية في عصره من مختلف الأقطار فكان في بلاطه المتنبي وأبو فراس والصنوبري وكشاجم والسريّ الرفّاء والوأواء الدمشقي والنامي والخالديّان وابنُ نَباتَة السعدي والسّلامي وغيرُهم ووفد عليه من أرض الكنانة أكثر من شاعر كالمُغَنَّم المصري ومحمد بن سُلْمِيّ الشيباني [٢] وابن أبي الجوع عبيد الله ابن محمد بن أبي الجوع [٣] .

وقد اختار أبو الحسن الشمشاطي وأبو محمد الفياض الكاتبُ من مدائح سيف الدولة عشرة آلاف بيت [٤] .

---

(١) اليتيمة (١ / ١١) .
(٢) الفهرست لابن النديم ص (٢٤٠) .
(٣) اليتيمة ط ٢ (١ / ٤١١) .
(٤) اليتيمة (١ / ١١) .

والحقيقة أن كثرة الشعراء في رحاب الأمير الحَمْدانيّ جنت على عدد كبير فحُشروُا مع النكرات الشعرية ، فكان إلى جانب الشعراء المشهورين عشرات من الشعراء المغمورين الذين لم تُعْنَ بهم مصادر الأدب والتاريخ إلاّ لماماً .

ويرى المرحوم الأستاذ العقاد : أنه في القرنين الثالث والرابع أوشك كل متعلمٍ متأدّبٍ أن يكون شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في بعض أغراض الشعر ، فالخلفاء ينظمون في الغزل والغناء ، والأمراءُ والوزراءُ والقوادُ والكتّابُ والقضاةُ كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير لذلك عاش في هذين القرنين كثرةٌ فائقةٌ من قائلي الشعر المحسنين محترفين وغير محترفين[1]. ويمكننا أن نقول: أن مدرسة شعرية كثيرة الطلاب والفصول والأساتذة قد ظهرت في بلاد الشام في عهد سيف الدولة وقد اختلفت هذه المدرسة عن غيرها ، وتنافس أعلامها وفحولها في إبراز الشعر الرفيع ونسج اللفظ البديع ذي المعنى الجديد والفكر الوطيد وأصبحت جواهر الشعر لا تروج في بلاط الأمير إلاّ إذا كانت ذات طابع ممتاز ورواء أخاذ في التصوير والتفكير والتعبير .

وهذه المدرسة الشعرية التي امتازت بحسن السبك وجمال الحوك . وانفردت بالإشعاع ذي الإبداع كان الصاحب ابن عباد يعجب بها وبطريقة شعرائها المثلى التي كانت سبيل البحتري في الجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة ومن هنا كان شديد الحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، كثير الشغف باستملاء الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع والروائع حتى كتب دفتراً ضخم الحجم منها .

---

(١) ابن الرومي ــ العقاد ــ ص (٤٤) .

وكان حفياً بمصاحبته ، حريصاً على ألاّ يتملأ منه أحد سواه وانثال ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي شبا قلمه ليحاضر به في مخاطباته ومحاوراته أو ينشره بعد أن ينثره في رسائله [1] .

وسنعرض بالبحث الفاحص والدراسة الماحصة لحياة فحول هذه المدرسة الشعرية التي عاشت في القرن الرابع بأطراف الشام والتي ضمت شاعر العربية الكبير المتنبي وزميله أبا فراس الحمداني وكشاجم والصنوبري والسري الرفاء والنامي والوأواء وغيرهم من أعلام الشعر وسادته وقادته وسوف نلقي عليهم الأضواء ونسلط الأنوار بعد أن كادت شهرة المتنبي تشجب وجودهم وتحجب شهرتهم وتمنع الالتفاف إليهم أو العناية بهم . ولقد غطى المتنبي على جميع مزامنيه من الشعراء ولم يذكر منهم بجانبه إلاّ أبو فراس الحمداني ، وذلك لقرابته من الأمير وجزالة شعره الأثير ولولا مكانته من السلطان لاختفى اسمه كما اختفى غيره من الشعراء [2] .

وقد اضطررنا إلى إجمال الحديث في هذا الباب دون ذكر فصول لأن كل شاعر من هؤلاء الأعلام يمثل بحثاً مستقلاً وقد تعرضنا لأحد عشر شاعراً بالدرس والتحليل واكتفينا باسم كل منهم ليكون عنواناً خاصاً يقوم مقام الفصل في هذا المجال الفسيح .

---

(١) اليتيمة (١ / ١٣) .
(٢) العمدة (١ / ١٣) .

— ١ —

المتنبي

أبو الطيب المتنبي شاعر العربية الكبير سفر خالد في تراثنا الأدبي كتبت عنه مجلدات ضخمة ولا تزال حياته تستهوي الباحثين والدارسين ولست هنا بصدد تأريخ حياة الشاعر الكبير ولكن صلته بسيف الدولة تدفعني إلى أن ألمّ بحياته وجوانب إبداعه الفني في البلاط الحمداني .

والمشهور في نسب المتنبي أنه أحمد بن الحسين بن الحسن عبد الصمد الجعفي الكندي [١] .

وقد ولد بالكوفة في محلة تسمى كندة فنسب إليها وليس من كندة القبيلة العربية المعروفة بل هو جعفي النسب من مذحج [٢] وقد أخطأ بعض المؤرخين فظنها كندة القبيلة التي منها امرؤ القيس حيث قال « بدىء الشعر بكندة وختم بكندة يعني امرؤالقيس والمتنبي [٣] » ولقد كان المتنبي يخفي نسبه دائماً لأمر في نفسه ، ولما سأله التنوخي عنه لم يجب وقال : أنا رجل أنزل دائماً على القبائل والأعراب وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسب لا آمن أن يكون لبعض الأعراب ثار في قومي فيأخذوني بهم ، وما دمت غير منتسب إلى أحد فأنا أسلم على جميعهم ولا يخافون لساني [٤] . ويرى الدكتور عبد السلام سرحان أن هذا الاعتذار يكاد يكون مقبولاً فإن عصره كان عهد فتن وثورات

---

(١) وفيات الاعيان (١ / ٤٤) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٢) .
(٢) شذرات الذهب (٣ / ١٤) .
(٣) وفيات الاعيان (٢ / ٥٤٢) .
(٤) نشوار المحاضرة (٤ / ١٢٠) .

دينية وسياسية واجتماعية وكان النزاع بالغاً أشدّه بين القبائل العربية وبين العرب وسواهم ولقد أحسن في إخفاء نسبه من نواح أخرى فهو رجل عظيم النفس عالي الهمة كبير الآمال كثير الأعداء ومن الصعب أن يعترف بنسب لا يرفع رأساً ولا يورث مجداً لأن أهله فقراء والمال عصب الحياة وسبيل الجاه في ذلك العصر [1] .

روى الخطيب البغدادي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي قال كان المتنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة وكان أبوه يعرف بعبدان السقا ويسقي لنا ولأهل المحلة . . . وكان عبدان والد المتنبي يذكر أنه من جعفى بن سعد العشيرة وكانت جدة المتنبي همدانية صحيحة النسب لا أشك فيها وكانت جارتنا وكانت من صلحاء النساء الكوفيات [2] وقال ابن نباتة وقيل أن أباه كان يسمى عبدان السقاء وهو رجل كان يسقي الماء على جمل له بالكوفة [3] . ويذهب إلى هذا القول نفسه ابن خلكان [4] ويشك الثعالبي في صحة هذا القول ويذهب إلى أن ابن لنكك أحد شعراء البصرة هو الذي شمت بالمتنبي بعد وقيعة شعراء بغداد فيه بإغراء الوزير المهلبي لأن المتنبي ترفع عن مدحه وذلك قبيل سفره إلى بغداد فقال زاعماً – والعبارة للثعالبي – إن أباه كان سقاء وسجل ذلك في قوله :

قولا لأهل زمان لا خلاق له ضلوا عن الرشد من جهل بهم وعموا
أعطيتمُ المتنبي فوقَ منيتـــه فزوجوهُ بـــرغمِ أمهـاتكم
لكنّ بغدادَ جاد الغيث ساكنها نِعالُهم في قَفا السقاء تزدحمُ [5]

ويرى الدكتور عمر فروخ أن هذا الزعم باطل إذ أنه عثر في قاموس

---

(١) أبو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر – عبد السلام سرحان – خ – ص (٣٦٧) .
(٢) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٣) .
(٣) سرح العيون ص (١٦) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٤٦) .
(٥) يتيمة الدهر (١ / ١٠٠) .

الفيروزابادي على عبارة بهذا النص . إن عبدان السقّاء بالكسر لقب والد المتنبي فقال يبدو لي أن والد المتنبي كان طويل الأطراف دقيقها لذلك شبه بعيدان السقا وهي العيدان أو العصي التي تُنصَبُ ليقام عليها السّقاء ، فلا يكون حينئذ لهذا اللقب صلة بسقي الماء ولا بالفقر والغنى والحمول والشهرة[1] .

ومهما يكن من أمر فإن شاعرنا عربي الأب والأم ولا يعيبه إن كان من بيت فقير ، ومن الحق أن أهله شرفوا به وارتفع مجدهم على أكتافه .

نشأته :

ولد المتنبي بمحلة كندة في الكوفة سنة ٣٠٣ هـ واختلف إلى كتاب فيه أولاد أشراف الكوفة فكان يتعلم دروس العلوية شعراً ولغة وإعراباً[2] . وفي هذا الكُتّاب تعلم القراءة والكتابة[3] وقد امتاز أثناء دراسته بالذكاء النـــادر والذهن المتوقد والشغف الشديد بالعلم[4] . وذهب في صباه إلى البادية وصحب الأعراب ثم عاد إلى الكوفة بعد سنين بدوياً قحّاً[5] .

وبعد أن قضى فترة صباه بالعراق متنقلاً بين ضواحي الكوفة والبوادي المحيطة بها وواردا بغداد سنة ٣١٩ هـ لما أغار القرامطة على الكوفة سافر أبوه إلى بلاد الشام سنة ٣٢١ هـ[6] .

ويقول الثعالبي عن نشأة أبي الطيب : ذكرت الرواة أنه ولد بالكوفة في سنة ثلاث وثلثمائة وأن أباه سافر به إلى بلاد الشام فلم يزل ينقله من باديتها إلى حضرها ومن مدرها إلى وبرها ويسلمه إلى المكاتب ويردده في القبائل ومخايله نواطق الحسنى عنه وضوامن النجح فيه حتى توفي أبوه ، وقد ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع[7] .

---

(١) فن المتنبي بعد الف عام ــ ابراهيم العريض ص (٦٠) .
(٢) خزانة الادب ــ البغدادي ــ (١ / ٦) .
(٣) الصبح المنبي (١ / ٦) .
(٤) سرح العيون ص (١٦) .
(٥) تاريخ بغداد (٤ / ١٠٣) .
(٦) الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ــ الصاحب بن عباد ص (١٢) .
(٧) اليتيمة (١ / ١١٢) .

ويرى الأستاذ عبد الوهاب عزام أن قول الثعالبي هذا وهم لأنه من المؤكد تاريخياً أن المتنبي قد نزح إلى بلاد الشام وهو في ريعان الشباب .

وقد خرج المتنبي إلى بني كلب وأقام فيهم ويزعم بعض أهل الأدب أنه ادعى النبوة لما كان بالبادية وكثر أتباعه وأشياعه . وقد سجن من أجل ذلك وفي هذا كلام كثير ليس هذا محله . والذي لا شك فيه أن المتنبي سجن بالشام في شبابه ويتفق على هذا شعر أبي الطيب ورواة سيرة حياته ، وأما الجناية التي سجن من أجلها ففيها اختلاف كبير فبعض الرواة ذهب إلى أنه ادعى النبوة وبعضهم يرى أنه ذهب مذهب العلوية وبشر في حقهم بالخلافة وطغيان بني العباس عليهم . والمتنبي نفى عن نفسه هذه التهمة ولم يرضَ بها ، قال له بعض الأكابر في مدينة السلام أخبرني من أثق به أنك قلت إنّك نبي . فقال الذي قلته أنا أحمد النبي [1] .

ويرى الدكتور طه حسين أن سبب سجن المتنبي هو آراؤه الثورية التي ضمنها شعره واستهانته بالقواعد الدينية وتشبيهه المسلمين باليهود والقرود ودعوته الناس إلى تلك المبادىء الخطرة التي عرفت عن القرامطة [2] . وكذلك أنكر نبوته الأستاذ عبد الوهاب عزام [3] ويرى الدكتور عبد السلام سرحان أن أسباب سجنه هي استعداده للخروج على الدولة وإلهابه نفوس الشباب من لداته وتهوين الموت في سبيل المجد واجتماع كثير من شباب البادية حواليه إعجاباً بشجاعته وأدبه ومبادئه الثورية [4] . كما أنه يرجح أن المتنبي سجن سنة ٣٣٠ هـ أو بعدها بقليل .

---

(١) شرح ابن جنى (ص ٩٩) .
(٢) مع المتنبي ص (١٦٦) .
(٣) ذكرى أبي الطيب ص (٧٢) .
(٤) أبو تمام والبحتري والمتنبي بين حقائق الحكمة وخيالات الشعر ـ عبد السلام سرحان ـ خ ـ ص (٣٦٧) .

ولما خرج المتنبي من سجنه هام على وجهه في بلاد الشام متكسباً بشعره يقصد الممدوحين فيخيبون رجاءه أو يعطونه نزراً فيثور ثم تضطره الحاجة إلى المدح . ومن أشهر ممدوحيه قبل اتصاله بسيف الدولة بدر بن عمار الأسدي نائب ابن رائق في طبرية ومساور بن محمد الرومي والي حلب وسعيد ابن عبيد الكلابي والحسين بن عبيد الله بن طغج بن أخي الإخشيد وطاهر العلوي وعلي بن إبراهيم التنوخي ومحمد بن زريق الطرسوسي وغيرهم .

واتصل المتنبي بأبي العشائر والي إنطاكيّة سنة ست وثلاثين وكان أبو العشائر والياً على إنطاكيّة من قبل سيف الدولة فلما قدم الأمير الحمداني إنطاكيّة سنة ٣٣٧ هـ قدّم أبو العشائر إليه أبا الطيب واثنى عليه . وقال صاحب الصبح المُنْبي [١] واشترط المتنبي على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مديحه لا ينشده إلاّ وهو قاعد وألاّ يكلّف تقبيل الأرض بين يديه فنُسِبَ إليه الجنون ودخل سيف الدولة تحت هذه الشروط وصحب أبو الطيب سيف الدولة ثماني سنوات وقد قربه سيف الدولة وأجازه الجوائز السنية ومالت نفسه إليه وأحبه واكتفى منه في العام بثلاث قصائد يجيزه عليها بثلاثة آلاف دينار [٢] .

ولبث المتنبي مع سيف الدولة مدة طويلة وقال فيه نحو ثلث شعره كماً وأجوَدَه كيفاً وقد قال في هذه الفترة أروع شعره في تصوير معارك سيف الدولة وحروبه إذ كان يشهد المواقِع وكان يبدي ضروباً من البطولة ولكنه اضطرّ لترك حلب عندما لم يكبح الأمير جماح المتطاولين عليه وقد فارقه لأنه سمح لابن خالويه النحوي أن يضربه بمفتاح كان في يده حينما اشتد الجدل بينهما في مجلسه على مسألة في علم النحو ، فتوجه إلى دمشق سنة ٣٤٦ هـ

---

(١) الصبح المنبي (١ / ٦٦) .
(٢) الصبح المنبي (١ / ٦٥) .

ومنها يمّم شطر مصر فتلقاه كافور بالتكريم والتبجيل فمدحه بمدائح بالغ فيها مبالغات كبيرة ووعده بإحدى الولايات ولكنه ظل يماطله إلى أن نَفِدَ صبره وعندما سنحت له الفرصة هرب من مصر في سنة ٣٥١ هـ وذم كافوراً بقصيدته المشهورة :

عيدٌ بأيّةِ حالٍ عُدْتَ يا عيدُ بما مضى أمْ لأمْرٍ فيكَ تجْديدُ ؟

ووصل إلى الكوفة ومنها توجه إلى بغداد وحضر فيها بعض مجالس الوزير المهلبي العلمية وترفع عن مدح المهلبي فغاظه ذلك وأغرى به شعراء بغداد الذين تباروا في هجائه والنّيْل منه وفيهم ابنُ الحجّاج وابن سُكّرةَ الهاشمي وأبو علي الحاتمي فلم يردَّ عليهم احتقاراً لهم [١] .

وأرسل إليه ابن العميد من أرّجانَ فسار إليه ومدحه ، ثم اتصل بعَضُدِ الدولة في شيرازَ ثم ارتحل عنها فقتل في الطريق ٣٥٤ هـ قريباً من النعمانية في الجانب الغربي من سَوادِ بغدادَ والذي قتله هو فاتك بن أبي جهل الأسدي وقتل معه ابنه مُحَسَّداً وغلامَهُ مُفْلِحاً [٢] وذكر الباحثون أن سبب قتله إياه هو هجاؤه ابنَ أختِ فاتك ضبّةَ بنَ يزيدَ العُتْبي .

المتنبي وسيف الدولة :

خرج المتنبي من سجنه فقيراً ناقماً على الزمان وأهله وأخذ يتردد على الحكام فيمدحهم فلا يجد عندهم تقديراً لا لنفسه ولا لشاعريته ولقد مدح علي بن منصور الحاجب بقصيدته التي مطلعها :

بأبي الشموسُ الجانحاتُ غواربا اللاّبساتُ من الحريرِ جَلابِبا

---

(١) العمدة (١ / ٩٢) .
(٢) الكامل (٨ / ٢٢٣) .

فلم يُعْطِهِ إلاّ ديناراً واحداً ولذا سميت الدينارية [1] .

وكان المتنبي آنذاك يشكو الفَقْر وسوء الحال ويصرّحُ بذلك في قصيدة مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي :

لمّا أقمْتَ بإنطاكيّة اختلفت ... إليَّ بالخبرِ الرّكبانُ في حَلَبا
فسرتُ نحوك لا ألْوي على أحدٍ ... أحُثُّ راحلتيَّ الفَقرَ والأدَبا
أذاقَني زَمَني بلْوى شرِقْتُ بها ... لو ذاقها لبَكى ما عاشَ وانتحبا [2]

ولقد روي أن المتنبي مدح بدون العشرة والخمسة من الدراهم [3] ولقد قالوا : إن أكثر ما نال شعره قبل اتصاله بسيف الدولة كان مائة دينار منحها له الأمير أبو محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج بالرملة [4] .

وشعر المتنبي في تلك الفترة ينحط في أغلبه عن شعره في الأطوار التي تلت . ولقد قال الواحدي : ولو طرح أبو الطيب شعره في صباه من ديوانه لكان أولى بـــه ثم اتصل المتنبي بسيف الدولة في سنة ٣٣٧ هـ فوفر له بعطائه السخي وصلاته الوافرة الهدوء والاستقرار ، ووجد في البلاط الحمداني كثيراً من المنافسين . والمنافسة تُذْكي الخيال وتثيرُ القريحة وصحب الأمير شاعره في الحروب التي خاضها فشهد المعارك الدامية وأبصر ضروباً من البطولات فوصفها بملاحمه الخالدة التي فاق فيها أقرانه وعلا فوق كافة الشعراء .

فلقد صور في سيفياته بطولات الأمير وذكر القواد وتنظيم الجيوش والخيول والرماح المحطمة والسيوف المتكسرة والدماء السائلة كما وصف

---

(١) اليتيمة (١ / ٩٥) .
(٢) الديوان ص (٧٢) .
(٣) خزانة الادب ــ البغدادي ــ ص (٣٤٦) .
(٤) المرجع نفسه ص (٣٥٠) .

سماء المعارك والغبار المثار والمنعقد في الفضاء والجبال التي طواها الجيش الحمداني والأنهار والسهول التي قطعها . ولقد أكثر وأجاد في وصف المعارك حتى قال ابن الأثير واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال وأنا أقول قولاً لست فيه متأثماً ولا منه متلثماً وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها حتى يظنّ أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا فطريقته في ذلك تضل بسالكه وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ما أدى إليه عِيانُه (١) .

ولقد أقام المتنبي برحاب الأمير عشر سنين وقال فيه غرر قصائده وعيون شعره التي بلغت نحو ثلث ما قال في ديوانه . وسجل بها مآثر سيف الدولة وبطولاته وانتصاره وهزيمته والضربَ والطعنَ والأسر والسّبي كما سجل الشاعر أحاسيس نفسه في مشاعرها المختلفة من انقباض وانبساط واضطراب .

ولم يألُ سيف الدولة جهداً في برّ شاعره ومنحه العطاء والصلات وإغداق النعمة عليه وإكرامه وإعظامه ، وقد روى البغدادي أن سيف الدولة أمر بحساب ما أعطى للمتنبي فكان خمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنوات(٢) ولقد هدأت نفس الشاعر في رحاب الأمير فترك الشكوى وابتعد عن حديث الثورة الذي طفح به شعره في الماضي .

ولقد وجد الشاعر في سيف الدولة الأمير الذي ينشُدُه ورأى الأمير في المتنبي فتىً أبيّاً جديراً بصداقته وشاعراً مجيداً خليقاً بتخليد بطولاته وانتصاراته فكان يصحبه في حله وترحاله ، وكان يفضّله على الشعراء كافة فاستطاع أن يحتل الصدارة وينتزع من الشعراء لواء الإمارة

---

(١) جواهر الادب ـ احمد الهاشمي (١ / ٣٧٣) .
(٢) خزانة الادب ـ البغدادي (٢ / ٣٥٢) .

أجاد المتنبي في سيفياته وقوي شعره في رحاب الأمير الحمداني وأخرج غرر شعره، ولم يجُدْ شعرُه في زمنٍ جَوْدَته أيام سيف الدولة وذلك لأسباب أهمها : أن المتنبي لم يجد ما يغذي نفسه وعواطفه في نواحيها المختلفة كما وجد في هذه الأيام فالمتنبي عربي يعتز كل الاعتزاز بعربيته فكان يحتقر كافوراً لاعجميته ويسب ابن خالويه لأعجميته ويقول في أبياته :

تُهابُ سيوفُ الهندِ وهي حدائدٌ فكيف إذا كانت نِزاريّةً عَرْبا

فكان لهذا إذا مدح كافوراً وغيره لم يُخْلِصْ ولم يواتِهْ طبعُه وإذا مدح سيف الدولة مدح عربياً لا يرى غضاضةً في مدحه وانثالت عليه المعاني انثيالاً [1] .

كما أن المتنبي نِزْبُ سيف الدولة فهُما من مواليد سنة ٣٠٣ هـ واتحاد سنهما كان من عوامل الانسجام بينهما وتقوية أواصر اتصالهما .

وعامل آخر من شأنه أن يلهم الطبع ويقوي الاستعداد ويلهب العاطفة ذلك أن سيف الدولة فارس شجاع وقائد محارب ، والمتنبي فارس شجاع جريء يعشق الضرب والطعان . وقد صحب الأمير في عدة معارك وفي إحدى هذه المعارك فر الجنود والقواد ولم يبقَ حول سيف الدولة غير ستة أحدهم المتنبي [2] .

كما أن سيف الدولة شاعر مُجيدٌ وناقد بارع ذو بصر بالشعر [3] والمتنبي شاعر فذٌّ وثقافته واسعة وقدرته في مجال الأدب كبيرة ، هذا بالإضافة

---

(١) فيض الخاطر ـ احمد امين ص (٧٩) .
(٢) اليتيمة (١ / ١٥ ، ٣٤) .
(٣) اليتيمة (١ / ١٥) .

إلى ندوة الأمير التي جمعت نفراً من العلماء والشعراء والموسيقيين والفلاسفة مما لم يجتمع بباب أحد من الملوك . وهذا من شأنه أن يهيىء لكل من يعيش في رحاب البلاط حظاً كبيراً من الثقافة والمعرفة وينمي الشاعرية لدى ذوي المقدرة والاستعداد .

وكان للمتنبي خصوم يبحثون عن ذامٍ يشوهون به سمعته وعيب ينقصون به شعره وينزلون به من قدره ويحاولون جادين أن يهدموا مجده ويقوضوا مدحه . فكان يجهد ليعمل على زيادة غيظهم ويبالغ في إرغـامهم وردّ سهامهم إلى نحورهم .

وعامل آخر له أهميته في توطيد صلة الأمير بالشاعر ومن شأنه أن يعمل على إجادة شعره وهو اشتراك المتنبي وسيف الدولة في التشيع إلى العلويين ومناصرة دعاتهم ومدهم بالمال دائماً[1] .

كما يجب ألاّ يغْرُبَ عن بالنا الهباتُ والصلاتُ والجوائز السنيّة التي كان سيف الدولة ينعم بها على المتنبي والتي كانت تدفعه للإجادة وتحثه على أن يسعى بكل جهده للبحث عن المعاني العميقة والأفكار الدقيقة وهو القائل :

تركتُ السرى خلفي لمن قلّ ماله وأنعلت أفراسي بنعماكَ عسجدا
وقيدت نفسي في هـواكَ محبّةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيدا[2]

المتنبي وفساد أمره مع سيف الدولة :

كثر حساد المتنبي وخصومه في بلاط الأمير من الشعراء والأدباء ويرى

---

(١) خزانة الأدب (٢ / ١٤٤) .
(٢) اليتيمة (١ / ١١٦) .

طه حسين أنه ليس غريباً أن تكره حاشية الأمير ولا سيما الشعراء والأدباء تقدم الشاعر وما صحبه من غطرسة عليها واستعلاء وليس غريباً أن تضيق بالشاعر حين ترى أن شعره يقع من الأمير موقعاً حسناً ثم تبغضه أشد البغض حين ترى الأمير يؤثره أشد الإيثار . وهي مكرهةٌ أن تلزم الصمت عن هذا الشاعر الذي يسودها في نفسها وفي مكانتها من صاحب القصر ثم يستأثر عنها بالحظوة [1] .

وربما كان من أشد خصومه أبو العباس النامي الشاعر وأبو فراس الحمداني وابن خالويه النحوي .

لقد كان النامي يحتل مكانة الصدارة في البلاط الحمْداني حتى جاء المتنبي فحلّ محلّه ونزل منزلتَه فغاظ ذلك النامي وجاء في الصبح المنبي أن أبا فراس قال لسيف الدولة : ان هذا المتشدق كثير الإدلال عليك . وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ويمكن أن تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره [2] .

كما أن المتنبي كان دائم الجدل مع ابن خالويه في المسائل اللغوية فكان ذلك يثير غضبه ونقمته على الشاعر ، هذا بالإضافة للصداقة الحميمة التي كانت تربط ابن خالويه بأبي فراس والتي كانت سبباً في عدائه للمتنبي .

يضاف إلى ذلك أن صفات المتنبي من غرور وشعور بالعظمة وتعالٍ واحتقار للآخرين كانت تثير النقمة عليه والعداء له ولقد عرض بالشعراء الذين ضمهم بلاط الأمير الحمداني فرماهم بأنهم أدعياء الشعر وأنهم ليسوا إلاّ صدى لصوته فقال :

---

(١) مع المتنبي ص (٢٥٨ ــ ٢٥٩) .
(٢) الصبح المنبي ص (٤٥) .

ودع كلّ صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى

وكيف لا ينقم عليه الشعراء في بلاط الأمير وهو القائل :

أنا السابقُ الهادي إلى ما أقولهُ إذْ القولُ قبل القائلينَ مقولُ

ولا شك أن أولئك الشعراء قد بيتوا المكايد للمتنبي وناصبوه العداء ، وقد صرح بذلك حيث يقول :

أفي كلّ يومٍ تحت ضبني شُوَيْعِرٌ ضعيفٌ يقاويني قصيرٌ يطـاولُ
لساني بنُطْقٍ صامتٍ عنه عاذلٌ وقلبي بصمتٍ ضاحكٌ منه هازلُ
وأتعبُ ما ناداكَ مَنْ لا تجيبهُ وأغْيَظُ من عاداكمن لا تشاكل[1]

وحيث يقول لسيف الدولة :

أرى المتشاعرينَ غُروا بـــذمي ومَنْ ذا يحمَدُ الداء العُضالا
ومَن يَكُ ذا فَمٍ مُرٍّ مريضٍ يَجِدْ مُرّاً به الماءَ الزُّلالا[2]

وديوانه حافل بالشعر الذي يتحدث عنه الحساد والوشاة والناقمين :

وذهب الأستاذ محمود شاكر إلى أن العداوة بين أبي فراس والمتنبي لا ترجع إلى منافسة في الشعر وإنما السبب الحقيقي في هذا العداء راجع لحب المتنبي لخولة ــ شقيقة سيف الدولة ــ الذي جلب كيد أبي فراس ثم أبي العشائر[3] .

---

(١) الديوان (٣ / ٢٩٤) .
(٢) المرجع نفسه ص ٤٢٩ .
(٣) أبو الطيب المتنبي بعد ألف سنة ــ صحيفة دار العلوم ــ مقال بعنوان المتنبي يعشق (١٩٩ ــ ٢٠٢) .

وقال بمثل هذا القول محمد سعيد العريان والدكتور المحاسني [1] ومارون عبود [2] الذي يرى في قصيدة رثاء المتنبي لخولة شبهة تدعم ظن الأستاذ محمود شاكر ، وإن ما حدث بين المتنبي وسيف الدولة يثير شكّاً قويّاً وهو يتساءل عما يخاف الشاعر ليعقب على قوله :

يظنُّ أنَّ فؤادي غيرُ ملتهبٍ وأنَّ دمع جفُوني غيرُ مُنسكبِ

بقوله :

ولا ذكَرَتُ جميلاً من صنائعها إلاّ بكيتُ ، ولا ودّ بلا سبَبِ

فمثل هذا البسط بل مثل هذا التعليل لا يطلبا من الشعراء فهي إذن عاطفة حاول الشاعر إخفاءها فأبتْ إلاّ أن تظهر وتبين . ثم يقول : — بماذا نعلل هذا الحنين الدائم إلى سيف الدولة وهو مصطبغ بألوان الحب أشد اصطباغ .

رحَلتُ فكم باك بـأجفان شادنٍ عليَّ وكم باكٍ بأجفانٍ ضيغمِ
ولوْ أنَّ ما بي من حبيب مُقَنَّعٍ عذَرْتُ ولكن من حبيب معَمَّمِ
رمَى واقعي من دون ما كنت أتّقي هوًى كاسرٌ كفيّ وقوْسي وأسهُمي

كما ذهب الأستاذ إبراهيم العريض إلى تأكيد قصة الحب المزعومة قائلاً : ان الفضل في كشف النقاب عن هذا الجانب الخفي من حياة المتنبي يرجع إلى الأستاذ محمود شاكر [3] .

ويرى الدكتور طه حسين أن القصيدة التي رثى بها أبو الطيب خولة لا

---

(١) المتنبي ص (٣١ / ٤٨) .
(٢) فن المتنبي بعد الف عام ــ يوسف العريض ــ ص (٢٤٢ / ٢٤٣) .
(٣) فن المتنبي بعد الف عام ــ ابراهيم العريض ــ ص (٢٤١) .

تدل على صلة قريبة أو بعيدة بينه وبين الفقيدة وكل ما يمكن أن يُفهَم منها أن الشاعر يتحدث عن بر الفقيدة له وإحسانها إليه كما كانت تحسن إلى غيره من القصاد وأهل الأدب [1] . وإني أرى أن المتنبي رجل يجري وراء المجد ويبحث عن العُلا والوصول إلى الولاية وقد أفنى عمره وهو يتطلع إلى تحقيق ذلك ولا يهتم إلاّ بنفسه ولا يعيش إلاّ لها فهو كما يصفه شوقي ضيف : — كان يعيش في نفسه ويحس آماله ومطامحه وما يجيش في صدره من ثورة على الزمن والمجتمع [2] واستبعد عدد من الباحثين حكاية الحب هذه ومن هؤلاء محمد كمال حلمي [3] وأحمد الشايب [4] وشفيق جبري [5] وشوقي ضيف .

وأود أن أضيف أن شخصية الأمير الحمداني العظيمة الجديرة بالحب والإعجاب كان لها أثر في استحداث أسلوب فني جديد في شعر المتنبي بمخاطبة الممدوح من الملوك بمثل مخاطبته المحبوب والصديق . ولقد تنبه إلى ذلك الثعالبي وعده من محاسن شعر المتنبي حيث قال : — وهو مذهب له تفرد بـــه واستكثر من سلوكه اقتداراً منه وتبحّراً في الألفاظ والمعاني ورفعاً لنفسه عن درجة الشعراء وتدريجاً لها إلى مماثلة الملوك في مثل قوله :

مالي أكتُمُ حُبّاً قد بَرَى جسَدي ... وتدَّعي حُبَّ سيف الدولة الأممُ ؟
إن كان يجمعنا حُبٌّ لغُرَّتِـــهِ ... فليتَ أنّـــا بقـــدر الحبّ نقتسمُ

وقوله لكافور :

---

(١) مع المتنبي (٢١١ ــ ٢١٢) .
(٢) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص (٣٠٥) .
(٣) ابو الطيب المتنبي (١٩٠ ــ ١٩١) .
(٤) ابحاث ومقالات ص (٨٣) .
(٥) المتنبي ص (١٥١) .

وما أنا بالباغي على الحبّ رشوةً ضعيفُ هوًى يُبْغى عليهِ ثوابُ
وما شئتُ إلاّ أن أدُلَّ عَواذِلي على أنَّ رأيي في هَواكَ صوابُ

وهذه الخاصية وجدت في شعر المتنبي بعد اتصاله بسيف الدولة وعلة ذلك أن الأمير الحمداني نال إعجاب الشاعر وملك قلبه ورأى فيه المَثَل الذي يعشقه فهو البطل المجاهد والفتى العربي الذي خاض المعامع وواقع الروم عشرين عاماً والمتنبي كما نعلم متعصب للعروبة وكاره للعجم :

وإنما الناسُ بالملوكِ ومَـا تُفْلحُ عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ

ونخلص من هذا كله إلى القول بأننا لا نميل مطلقاً إلى الزعم القائل بحب المتنبي لخولة وبأن هذا محض من الوهم والخيال لا يثبت أمام الحقيقة والواقع .

ونعود إلى القول بأن المتنبي أنشد سيف الدولة آخر قصيدة له في سنة ٣٤٥ هـ تلك التي أولها :

عقْبى اليمين على عقْبى الوغى ندَمُ ماذا يُزيدُكَ في إقدامكَ القسَمُ

ثم يمم شطر الكنانة بعد خلافه الذي تحدثنا عنه مع ابن خالويه الذي ضربه على وجهه بمفتاح من حديد فأسال دمه على وجنتيه وثيابه .

ولقد تنقل المتنبي بعد رحيله عن حلب بين مصر والعراق وبلاد فارس ومدح الملوك والأمراء ولقي في ربوعهم التقدير والإكبار ، إلاّ أنه لم تَحْلُ بعد سيف الدولة أيامُه وتراجع شعره بعد مفارقته وعندما سئل عن ذلك قال : — قد تجوزت في قولي وأعفَيْتُ طبعي واغتنمت الراحة منذ فارقت آل حمدان [1] ومن المؤكد أن فراقه هذا كان مؤلماً لقلبه عزيزاً على نفسه .

---

(١) الصبح المنبى ص (٢٤٠) .

ولقد كاتب الأمير الحمداني أبا الطيب بعد رحيله عن مصر وعودته إلى الكوفة داعياً إياه إلى العودة إلى حلب [1] فأجابه المتنبي بقصيدة رائعة يتضح فيها إكباره للأمير ولكنه يتغاضى عن أمر العودة إلى البلاط الحمداني فقال:

مـــالَنا كُلُّنا جَوىً يا رسول ... أنا أهْوى وقَلبُكَ المَتْبولُ
كلّما عادَ مَنْ بَعَثْتُ إليها ... غـــارَ منّي وخانَ فيما يقولُ

إلى أن يقول :

كيف لا تأمنُ العراقُ ومصرٌ ... وسراياكَ دونهـــا والخيولُ ؟
لو تحَرّفتَ عن طريق الأعادي ... رَبَطَ السَّدْرُ خيلهمْ والنّخيلُ
أنتَ طولَ الحياةِ للروم غازٍ ... فمتى الوعدُ أن يكونَ القفولُ ؟
وسوى الروم خلفَ ظهرك رُومٌ ... فعلى أيّ جانبيْكَ تميلُ ؟
قعد الناس كلهم عن مساعيـ ... ـكَ وقامتْ بها القَنا والنُّصُولُ
ما الذي عندهُ تُدارُ المَنايـــا ... كالّذي عندهُ تُدارُ الشَّمُولُ

وسمع المتنبي بوفاة أخت سيف الدولة « خولة » فرثاها قائلاً :

يا أُخْتَ خَيرِ أخٍ يا بنتِ خيرِ أبٍ ... كَنايَةً بهما عن أشرفِ النّسَبِ
طَوى الجزيرةَ حتى جاءني خَبَرٌ ... فزِعْتُ فيهِ بآمالي إلى الكَذِبِ
حتّى إذا لم يدَعْ لي صدقهُ أمَلاً ... شَرِقْتُ بالدّمْعِ حتى كاد يشرق بي

وعلى أثر ذلك أرسل إليه الأمير الحمداني مالاً وهدية وكتب إليه يدعوه للعودة إلى حلب إلاّ أن المتنبي اعتذر وبعث إليه يقول :

---

(١) ذكرى ابي الطيب ــ عبد الوهاب عزام ــ ص (١٧٣) .

فهمتُ الكتابَ أبَرَّ الكتُبْ فسمْعاً لأمر أميرِ العَرَبْ
وطوعاً له وابتهاجاً بـــــه وإن قصّرَ الفعل عما يجب
وما عاقني غيرُ خوف الوُشاة وأن الوشايات طرُق الكَذِبْ

وخلاصة القول أن سيف الدولة كان عظيماً وكان المتنبي شاعراً عبقرياً أحبّ كلّ منهما الآخر وسعى الحسّادُ بالنميمة ففرقوا بينهما . ولقد كان كل منهما متمماً جزءاً من الثاني وممهداً له طريق البقاء والخلود .

obeikandl.com

- ٢ -

أبو فراس الحمداني

هو الحارث بن أبي العلاء سعيد بن حمدان بن حمدون الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة ابني حمدان . . . كان أميراً شجاعاً وفارساً مغواراً وشاعراً بليغاً وكان الصاحبُ بنَ عبّاد يقول : « بدىء الشعر بملك وختم بملك » يعني أمرأ القيس وأبا فراس [١] .

وكنية أبو فراس هي كنية الأسد [٢] وقيل الفراس هو الأسد [٣] وقد غلبت هذه الكنية على الشاعر حتى كاد لا يعرف إلاّ بها .

وأبو فراس عربي الجذم صريح النسب وقد اعتز الشاعر بنجاره اعتزازاً كبيراً فقال :

لئن خُلِقَ الأنام لحسْوِ كأس ومِزْمارٍ وطُنْبورٍ وعود
فلمْ يُخْلَقْ بنو حمدان إلاّ لمجد أو لبأس أو لجود [٤]

---

(١) اليتيمة (١ / ٣٥) .
(٢) اللسان مادة فراس .
(٣) قاموس المحيط ـ مادة فراس .
(٤) اليتيمة (١ / ٤٤) .

وأبوه أبو العلاء سعيدٌ أمير من أمراء بني حمدان احتلّ مكانةً مرموقة في عهد الخليفة المقتدر وتولّى ولايات عدةً من قِبَل الخليفة العباسي ، وقتله ابن أخيه ناصر الدولة غدراً سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة هجرية ، وسبب ذلك أن الخليفة ولاّه إمارة الموصل وأغراه أن يطْرد منها ابنَ أخيه فدبّر له ناصر الدولة مكيدة أودتْ بحياته .

وكان لأبي فراس عدد من الأخوة ذكرهم في شعره ومنهم أخوه أبو الهيجاء حربُ بن سعيد وأبو عبد الله الحسين وأبو الفضل الذي كان كما يظهر أسيراً مع أبي فراس وبعث إليه ليزوره ويخفف عنه ويؤنسه فقال :

يضيقُ عليَّ الحَبْسُ حتى تَزورَهُ فما هوَ إلاّ روضَةٌ وغديرُ[1]

وكان له أختان تزوج إحداهما سيف الدولة وتزوج الأخرى أبو العشائر .

ولقد ولد أبو فراس في الموصل سنة ٣٢٠ هـ يؤكد ذلك رواية ابن خالويه عن أبي فراس : ــ غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون سنة ٣٣٩ هـ وسني إذ ذاك تسْعَ عشرةَ سنة[2] ولقد نشأ يتيم الأب ولم يحظ برعاية منه إذ أنه اغتيل في عام ٣٢٣ هـ كما تقدم ولم يكن أبو فراس آنذاك قد تجاوز الثالثة من عمره على أن سيف الدولة أحاط ابنَ عمّه اليتيم بالعطف والعناية ووفّر له تربية صالحةً وتعهدهُ بالتدريب في ميادين الرجولة . ولا عجب أن يصرح الشاعر فيما بعد بذلك العطف وتلك العناية فنسمعه يقول :

فمِنْ سعيدِ بنِ حمْدانَ ولادتَهُ ومن عليٍّ بن عبد الله ساتِرُهُ
لقد فقدتُ أبي طِفْلاً فكأنّ أبي مِنَ الرجال، كريمُ العودِ ناضِرُهُ[3]

---

(١) ديوان أبي فراس (٢ / ٢١٤) .
(٢) شرح ابن خالويه ــ للديوان (١ / ١٢) .
(٣) الديوان ص (٧٧) تحقيق البدوي الملثم .

وعندما استولى سيف الدولة على حلب سنة ٣٣٣ هـ وأقام دولته فيها انتقل معه أبو فراس وأمّه وكان عمره آنذاك ثلاثة عشر عاماً وهناك تولاه الفرسانُ يدرّبونَهُ على أساليب الفروسية وتتلمذ على يدَيْ ابن خالويه الذي كان مؤدِّباً لبني حمدان ومختصاً بهم على أبي ذرٍّ أستاذ سيف الدولة . والأهمّ من هذا أن أبا فراس عاش معظم سني حياته في البيئة الحلبية التي كانت زاخرة بالنشاط الأدبي والعلمي ومركزاً للإشعاع الفكري في العالم الإسلامي في ذلك العصر . ولقد كان بلاط الأمير حافلاً بالشعراء والأدباء واللغويين والفلاسفة وبقيت ندوته غرّةً بيضاء ناصعة في جبين الأدب العربي هذا بالإضافة إلى أن أبا فراس قد حبَاهُ الله شاعريةً فذّةً مكنت له أن يلمع في سماء الشعر الجزل إلى جانب كونه فارساً شجاعاً بارعاً في قيادة الجيوش وممارسة الحرب ومزاولة الطعان .

ولقد كان سيف الدولة يُعجَبُ جدّاً بمحاسن أبي فراس ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ويصطفيه لنفسه ويصطحبه في غزواته ويستخلفه على أعماله [١] وعندما اشتد ساعده قلّده في سنة ٣٣٦ هـ منبج وما حولها[٢] وكانت هذه مهمة عسيرة لا يُنتدبُ لها إلاّ فارسٌ ذو جدارة وكفاءة .

وأظهر أبو فراس كفاءة وجدارة في إدارة منبج وتفانى في الذود عن مُلك بني حمدان فحمى ذمارَ ولايته وصدَّ الغزو البيزنطي بمهارة وقوة واتّصف بالبسالة والإقدام وسار مع سيف الدولة في كثير من معاركه وتوغلا في بلاد الروم وأظهر ضروباً لا مثيل لها من الشجاعة .

وظهرت كفاءة أبي فراس في الأعمال الحربية التي قام بها وتُوّجت بأكاليل

---

(١) اليتيمة (١ / ٣٥) .
(٢) زبدة الحلب (١ / ١١٩) .

المجد والفخار غير أن الحظ الذي طالما حالفه في حروبه خانه في إحدى المرات فوقع أسيراً في أيدي الروم وقضى في الأسر عدة سنوات عصيبة مريرة .

وفيها أنشأ روملياته التي تُعَدّ من أروع وأجود ما قيل في الشعر العربي .

واختلف المؤرخون في تحديد السنة التي أُسر فيها أبو فراس وعدد مرات أسره وحكاية الأسر . فمنهم من ذهب إلى أنه أُسر مرتين كانت أولاها سنة ٣٤٨ هـ وكانت ثانيتهما سنة ٣٥١ هـ ومنهم من قال — انه لم يؤسر إلاّ مرة واحدة حددها عام ٣٥١ هـ .

ويرى ابن خالَوَيْه أن أبا فراس أُسر سنة ٣٥١ هـ وذلك أثناء خروجه للصيد في عدد يسير من أصحابه إذ التقى بابن أخت ملك الروم الذي خرج في ألف فارس إلى نواحي منبج فنشبت بينهما معركة شديدة غير متكافئة من ناحية العدد ثبت فيها أبو فراس حتى أُثْخِنَ بالجراح وأُسر [١] .

وروى التنوخي [٢] كذلك أن أبا فراس قد أُسر في سنة ٣٥١ هـ .

أما ابنُ خلّكان فإنّه يذهب إلى أن أبا فراس أُسر مرتين فالمرة الأولى بمغارة الكحل في سنة ٣٤٨ هـ وما تعدوا به خرشنه وهي قلعة ببلاد الروم والفُراتُ يجري من تحتها وفيها يقال : — إنه ركب فرسه وركضه برجله فأهوى به من أعلى الحصن إلى الفرات . والمرة الثانية أسره الروم على مقربة من منبج في شوال سنة ٣٥١ هـ وحملوه إلى قسطنطينية وأقام في الأسر أربع سنين [٣] .

---

(١) شرح ابن خالويه — الديوان (٢ / ٧٥ — ٧٦) .
(٢) نشوار المحاضرة (١ / ١١١) .
(٣) وفيات الاعيان (١ / ١٢٧) .

ويبدو أن الرأي القائل بأن أبا فراس أُسر مرة واحدة سنة ٣٥١ هـ ادّعى إلى التصديق كما استظهر أكثر النقاد ومؤرخو الأدب ويرجح هذا أن الشعر الذي نظمه أبو فراس في الأسر وأُطلقَ عليه اسم الروميات لم يشر إلاّ إلى أسره مرة واحدة أورد فيها ذكر خرشنة . ولو كان أُسر قبل ٣٥١ هـ ونجا بتلك الطريقة الأسطوريّة التي ذكرها ابن خلّكان لكان افتخر بذلك في شعره .

والأسير لا يترك الأعداء جواده في متناول يده وروح الخيال والأسطورة الذي يتغلغل في روايات البطولة يبدو واضحاً في رواية الفرار . يضاف إلى هذا وذاك أن ابن خالويه والقاضي التنوخي والثعالبي لم يشيروا إلى أن الأسر وقع مرتين . ولو حدث ذلك لكان جديراً بأن يذكر . فمن المعلوم أن ابن خالويه قد عاش في عصر الشاعر وروى شعره وكان من مؤدبيه كما قلنا سابقاً ، فروايته أهم من غيرها والتنوخي عاش في عصر ابن خالويه والثعالبي قريب من أبي فراس وعصره وعلى هذا تبدو روايتهم القائلة أن أبا فراس أُسر مرة واحدة سنة ٣٥١ هـ أدعى إلى التصديق لقرب عهدهم بالشاعر ولكونهم قد عُرفوا بالدقة والثبوت .

وقضى أبو فراس في الأسر سنوات عدة وعومل في الفترة الأولى من أسره معاملة حسنة ، ثم بعد ذلك تغيرت معاملتهم فوضع في مكان شديد الضيق وألبس الثياب الخشنة فساءت حالتُه حتى فارق الجَمالُ وجهه الوسيم وإنه ليقول مخاطباً سيف الدولة :

يا واسعَ الدّارِ كيْفَ توسعُها ونحنُ في صخْرَةٍ نُزَلْزِلُها
يا ناعِمَ الثّوْبِ كيفَ تُبْدِلُهُ ثيابُنا الصّوفُ ما نُبَدِّلُها
يا راكبَ الخَيْلِ لو بصرتَ بِنا نحملُ أقْيادَنا ونَنْقُلُها
رأيْتُ في الضرّ أوْجُهاً كَرُمَتْ فارقَ فيكَ الجَمالَ أجمَلُها

قدْ آثر الدَّهْرُ في محاسنِهـا تعرِفُها تارَةً وتَجْهَلُها [1]

وأخذ أبو فراس يلح في طلب الفداء وألّف رومياته استعجالاً لفداء سيف الدولة إيّاهُ ولكنّ الفداءَ لم يحدُثْ إلاّ في سنة ٣٥٥ هـ كما ذكر مُعظم المؤرخين . وذهب بعض الدّارسين إلى أنّ سيف الدولة قصَد عدَم الإسراع في فكّ أسْر ابن عمه وأنّ كلّ واحد منهما كان غير واثق من صاحبه وغير مطمئن إلى وفائه [2] . وأن قلب سيف الدولة كان متغيراً عليه وأن الصفاء الذي كان يسود علاقتهما شابهُ شيء من الكدَر والجَفاء بدليل ما نجده في شعر أبي فراس من عتاب كثير لابن عمه [3] .

ونحن نتساءل ما السبب الحقيقي لهذا الإبطاء في فداء أبي فراس وهل ما زُعِم من تغير سيف الدولة وقصده الإبطاء في الفداء صحيح ؟

وإن الإجابة على الإبطاء في فداء أبي فراس تستدعي النظر في الحال التي كان عليها سيف الدولة بعد أسر الشاعر فلقد سقطت حلَب بأيدي الروم ونهبت أموالُها وأسلحتُها وأمتعتُها والفداء يتطلب المال الكثير . والروم كان في أيديهم فضل ثلاثة آلاف أسير من العرب . ولم يكن سيف الدولة بافتداء أبي فراس وزمرة قليلة معه ليُبْقيَ بين يدي الروم هذا العدد الضخم من رجاله لهذا ظل ينتظر الظروف المواتية التي تسمح بافتداء الجميع [4] . وعندما سنحت الفرصة سنة ٣٥٥ هـ أقام الفداء بشاطىء الفرات في سنة خمس وخمسين وثلثمائة فأنفق عليه خمسمائة ألف دينار وأخرج كل من قدر على إخراجه من أسارى المسلمين من بلد الروم [5] . ودفع المال الذي لزمه لفداء الأسرى

---

(١) الديوان (٣ / ٣٣٣) .
(٢) أبو فراس فارس بني حمدان وشاعرهم ــ عمر فروخ ص (٣٢)
(٣) شاعر بني حمدان ص (٧٢) .
(٤) ديوان أبي فراس ــ سامي الدهان (٣ / ٣٠٣) .
(٥) نشوار المحاضرة (١ / ٢٨١) .

من ماله دون أن يعاونه أحد من الملوك ولا غيرهم [1] وبلغ به الأمر أن يرهن بدَنَتَه [2] الجوهر المعدومة المثل لمّا نفذ ما كان معه من المال [3] .

وخرج من الأسر أبو فراس ومحمد بن ناصر الدولة والقاضي أبو الهيثم عبد الرحمن بن القاضي أبي حصين وكان قد أُسِرَ في حرّان وخرج من المسلمين عدد ضخم [4] .

وعين أبو فراس بعد عودته والياً على حمص ولم يمهل القدَرُ سيف الدولة فقد توفي بعد بضعة أشهر من خروج أبي فراس من أسره وتسلم الحكم من بعده ابنه سعد الدولة أبو المعالي وهو ابن أخت أبي فراس . وفسد الأمر بين أبي فراس وابن أخته أبي المعالي والحاجب قرغويه وعزم على التغلب على حمص فاتصل خبره بأبي المعالي وغلام أبيه قرغويه وكان صاحب حلب فأرسل إليه من قاتله فأخِذ وقد ضُرب ضربات فمات في الطريق [5] . وكان مقتل أبي فراس سنة ٣٥٧ هـ .

خلف أبو فراس ديوان شعر رتبه قبل وفاته بقليل بعد أن نقده ومحا منه بعض القصائد [6] وشعره سائر بيّنُ الحسن والجودة والسهولة والجزالة والعذوبة والفخامة والحلاوة مع رُواء الطبع وسِمَة الظرف وعزة الملك [7] .

ولقد أتْحَفَ الأدب العربي برومياته تلك القصائد التي أنشدها إبّانَ

---

(١) نخب تاريخية ــ كانار ــ ص (١٩٤) .
(٢) بدنته : درعه القصيرة .
(٣) زبدة الحلب (١ / ٤٦) .
(٤) نخب تاريخية ــ ص (٣١٥) .
(٥) النشوار (١ / ١١٢) .
(٦) تاريخ الادب العربي ــ بروكلمان ص (٩٢) .
(٧) اليتيمة (١ / ٣٥) .

أسره يحن فيها إلى مراتع شبابه ومرابع صباه ويطالب بسرعة افتدائه ويفخر بنفسه ويتألم من أسره .

وتحدث الأدباء والنقاد عن هذه الأشعار فرأوا فيها صفوة نِتاج أبي فراس وقال الثعالبي أنها غُرَرٌ جادت بها قريحة الشاعر الأسير وكانت أشعاره تصدر في الأسر والمرض واستزارة سيف الدولة ، وفرط الحنين إلى أهله وأخوانه وأحبابه والتبرم بحاله ومكانه عن صدر حرج وقلب شجٍ فتزداد رقة ولطافة وتبكي سامعها وتعلَقُ بالحافظة لسلاستها [1] .

وقال التنوخي : ولأبي فراس كل شيء حسن من الشعر في معنى أسره ويروى عن أبي الفرج الببّغاء قوله وله – أي – أبي فراس في صنعة أسره وعللٍ لحقته هناك ومراثٍ لنفسه في الأسر وتعطفٍ لسيف الدولة شعرٌ كثيرٌ حسن حافل بمعانٍ مخترعة لم يسبق إليها [2] .

---

(١) المصدر نفسه (١ / ٦١) .
(٢) النشوار (١ / ١١٢) .

- ٣ -

النامي

هو أبو العباس أحمد بن محمد الدارمي المَصّيصيُّ .شاعر من فحولة شعراء العصر وخواص شعراء سيف الدولة ، وكان عنده تِلْوَ المتنبي في المنزلة والرتبة [١] وكان في أول أمره جزاراً [٢] . ثم ترك هذه المهنة وانصرف إلى قول الشعر والتحق بسيف الدولة ، وأصبح في عداد شعرائه المنقطعين إليه .

ولد النامي في حدود سنة ٣٠٩ هـ في مدينة المِصّيصة [٣] بالقرب من طَرْسُوسُ .

أما شهرته بالنّامي فيبدو أنها مشتقة من النّماء ويذهب السمعاني إلى أن النامي بفتح النون مأخوذ من النماء وهو الزيادة والمشهور بهذه النسبة أبو العباس أحمد بن محمد النامي المصيصي الشاعر [٤] .

وينتسب النامي إلى بني دارِمٍ ، من ولد مالك بن حنظلة بن زيد بن تميم .

---

(١) اليتيمة (١ / ١٣٥) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١٣١) .
(٣) المصيصة ـ بكسر الميم والصاد المشددة ـ مدينة على ساحل بحر الروم تجاه طرسوس ـ وفيات الاعيان (١ / ٦٧) وقال الحموي فيها ـ وهي مدينة على شاطىء جيحان ، من ثغور الشام بين انطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس ـ معجم البلدان (٤ / ٥٥٨) .
(٤) الانساب ص (٥٥٢) .

وبنو دارِمٍ من البطون الكبيرة في قبيلة تميم وبيتُ الشرف فيها وإلى دارِمٍ ينسب خلق كثير من الشعراء والأدباء والعلماء [1] .

ويقول ابن دريد في معنى دارم : — فاشتقاقه من أشياء . . . قولهم امرأةٌ درماءُ ورجلٌ أدرَمُ ، إذا لم يكن لعظامه حجم ، والدَّرَمَان — أيضاً — ضرب من المشي فيه تقارب خطو وهي مشية المرأة القصيرة المختالة. ودَرِمَت الأرنب درَماناً ، مشت مشياً سريعاً في قصر خطو [2] .

عُرِفَ عن النامي البراعة وسعَةُ الاطلاع وغزارة المعرفة بعلوم اللغة وفنونها وكان أديباً فاضلاً مقدّماً في اللغة عارفاً بالأدب ، وله أمال أملاها بحلَب وروى عن أبي الحسين علي بن سليمان الأخفش وابن دُرُسْتُوَيْه وأبي عبد الله الكَرْمانيِّ وأبي بكر الصولي وروى عنه جماعة من العلماء والأدباء منهم أبو القاسم الحسين بن علي بن أسامة الحلبي وأخوه أبو الحسين أحمد وأبو الفرج البَبَّغاءُ والقاضي أبو طاهر صالح بن أسامة الحلبي جعفر الهاشمي وأبو بكر الخالدي [3] .

وقد عدَّه من ترجموا له من فحول الشعراء وكانت منزلته كبيرة في البلاط الحمداني وله قصائد كثيرة في مدح الأمير ، وذكر الثعالبي قسماً منها وأورد مختارات من شعره في يتيمة الدهر ووصفها بأنها من عقائل شعره وفرائد عقده [4] .

وذكر ياقوت الحموي أن النامي كان مولعاً بالطباق والجناس إلى حد الصنعة فهو يقول في ترجمة علي بن يوسف المعروف بابن البقال : — وكانت

---

(١) الاشتقاق — ابن دريد ص (٢٣٣) .
(٢) المرجع نفسه ص (٢٣٤) .
(٣) شذرات الذهب (٣ / ١٥٤) .
(٤) اليتيمة (١ / ٢٢٥) .

له محاضرة حسنة وبضاعة في الأدب صالحة وطبقته في الشعر جيدة ، يذهب مذهب النامي في التطبيق وطلب الصنعة [١] .

وذكر ابن النديم أن للنامي ديوان شعر يقع في مائة وخمسين ورقة جمعه أبو أحمد الخلاّل الخالع [٢] . وديوانه هذا لم يصل إلينا ولعله أصبح في عداد المخطوطات المفقودة أو يرقد بين جدران إحدى المكتبات .

وعلى الرغم من مكانة النامي الأدبية وشهرته الشعرية لم ينل اهتماماً كبيراً من المترجمين القدماء أو الدارسين الباحثين في العصر الحديث وكان شأنه في هذا شأن الكثير من شعراء البلاط الحمْدانيّ الذين غطّت عليهم شهرة المتنبي ، الذي شغل الناس بشعره وشهرة أبي فراس الحمداني ابن عم الأمير الذي كان شاعراً مبدعاً وأميراً حاكماً لمنبج .

ولقد جمع الأستاذ صبيح رَديف قطعاً من شعر النامي ونشرها في عام ١٩٧٠ وهو لا يدعي أنه قد جمع كل ما ضمّنتْه كُتب الأدب من شعر الشاعر ويقول : انه من المحتمل أن يكون قد فاته قسم من شعره في مصادر لم يوفّق في الحصول عليها لا سيما المخطوطة منها [٣] ولقد حقق ما جمع ووازن بين النصوص بعد فحصها وعرضها بالروايات المختلفة . وثمة بضع قطع أخرى في المنتخب الميكالي الورقة ٤٨ ب ، سفينة الأدباء : الورقة ٣ ب ، ١٤ أ ، ٢٢٥ ب — ٢٢٦ أ ، كتاب الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطي انظر السيد م .يوسف في الموضع المذكور ص ٣٦٩حماسة ابن الشجري رقم ٦٥٢ ، الدر الفريد ٢ / الورقة ٢٢ أ ب ، ١٦٧ أ .

---

(١) معجم الادباء ط ٢ (٥ / ٥٠٧) .
(٢) الفهرست ص (٢٤٠) .
(٣) شعر النامي « مقدمة المحقق » ص (٥) .

ويوجد له بالإضافة لديوان شعره كتابان هما : كتاب « الأمالي » الذي أملاه بحلب [1] وكتاب « القوافي » ذكره ياقوت في ترجمة إبراهيم بن عبد الرحيم العروضي قائلاً : — حكى عنه أبو العباس أحمد بن النامي محمد في كتاب « القوافي » فهو من طبقة ابن دُرَسْتُوَيْه وعلي بن سليمان الأخفش [2].

ولقد عُمّر النامي طويلاً حتى أربى على تسعين سنة من العمر وكانت وفاته بمدينة حلب سنة ٣٩٩ هـ وذكر ابن خلّكان أنه قيل في وفاته : — أنها كانت سنة سبعين أو إحدى وسبعين [3] .

ولقد ذكر ابن خلكان حادثة طريفة تشير إلى طول عمر النامي إذ قال : « وحكى أبو الخطاب ابن عَوْنٍ الحريريّ النحوي الشاعر ، انه دخل على أبي العباس النامي — قال : فوجدته جالساً ورأسه كالنعامة بياضاً ، وفيه شعرة واحدة سوداء فقلت : — يا سيدي في رأسك شعرة سوداء ؟ فقال : نعم هذه بقية شبابي وأنا أفرح بها ولي فيها شعر . فقلت أنشدنيه فأنشدني :

رأيت في الرأس شعرةً بقيتْ ... سوداءَ تهوَى العيونُ رؤيتها
فقلتُ للبيضِ إذْ تُروِّعُها ... باللهِ ألاّ رَحِمْتِ غربتَها
فقلَّ لُبْثُ السّوداء في وَطَنٍ ... تكونُ فيه البيضاء ضُرَّتها [4]

صلته بسيف الدولة :

اتصل النامي بسيف الدولة وكانت له منزلة أثيرة في نفس الأمير وكانت

---

(١) وفيات الاعيان (١ / ٤٦) .
(٢) معجم الادباء ط ٢ (١ / ٢٧٩) .
(٣) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .

له فيه مدائح رائعة وغرر بديعة . وهو يأتي تلو المتنبي في المكانة والمنزلة والرتبة كما يقول الثعالبي [1] وله مع المتنبي وقائع ومعارضات .

ولقد كان شاعر الأمير الأول والمقدم على غيره سيما بعد مغادرة المتنبي لرحاب الأمير غضباً ، موليا وجهه صوب مصر طمعاً في الحصول على ولاية ، ولا نكاد نحصل على تفصيلات وافية عن مدى علاقة النامي بالأمير الحمداني كالذي نجده في علاقة المتنبي به . فتلك العلاقة لم تقتصر على وقت السلم سواء في مجلسه أو علاقاته العامة والخاصة بل تعدتها إلى مشاركة المتنبي في الحروب شاعراً بقصائده وجندياً مقداماً يشهر سيفه في ساحات الوغى ، يذب به الأعداء عن سيف الدولة الحمداني [2] .

وكان الحساد في بلاط الأمير ينظرون للنامي بحكم منزلته التي تلي منزلة المتنبي بعين الحقد والكره وكانت له مع المتنبي وقائع ومعارضات في الأناشيد [3] أويتضح ذلك من قول النامي : كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت شتهي أن قد سبقته إلى معنيين قالهما — ما سبق إليهما أحد — هما قوله :

رماني الدَّهرُ بالأرزاء حتّى فؤاديَ في غشاءٍ من نِبالِ
فصِرْتُ إذا أصابَتْني سهامٌ تكسّرتِ النِّصالُ على النِّصالِ

وآخر قوله :

في جحْفَلٍ سترَ العيونَ غبارُهُ فكأنما يُبصِرنَ بالآذانِ [4]

---

(١) اليتيمة طبعة ١٩٣٤ (١ / ١٩٠) .
(٢) الاعلام (١ / ٢٣) .
(٣) شعر الحرب في أدب العرب ص (٢٥٦) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .

وأشار الأستاذ الكيّالي إلى أن النامي كان في جملة مناوئي المتنبي وحساده حيث يقول : وبدأت المؤامرات تحاك حوله وبدأوا يدسّون عليه ويصوّرون شعره بشكل مبتذل ، أجمله مسروق ، لا يستحق هذا الإكبار والإجلال . وكان في طليعة هذا النفر النامي الشاعر وابن خالويه مؤدّبُ سيف الدولة وأبو فراس ابن عمه . وكان أبو فراسٍ أكثرهم حِقداً عليه [1] .

وذهب هذا المذهب الأستاذ جوزيف الهاشمُ بقوله : وكان لكبرياء أبي الطيب وتعاليه على رجال البلاط وشعرائه ، وإيثار سيف الدولة له القدرة على أن يؤلّب عليه الحساد ليوقعوا بينه وبين أسيره . وقد أثمرتْ هذه السعايات التي كان يقوم بها رجال مقربون كأبي فراس وابن خالويه والنامي ثمراً مريراً فيما بعد [2] .

ويخالف هذا الرأي الدكتور الشكعة ويميل إلى أن النامي وقف إلى جانب المتنبي في خصومته مع أبي فراس الحمداني . فيقول : نشأت المشاحنات وتعددت المعسكرات التي استفاضت بها كتب تاريخ الأدب عما حدث في بلاط سيف الدولة من مساجلات ومشاحنات لم تكن لتخلو من دماءٍ في بعض الأحيان فهناك الخلافُ الشديد بين كل من أبي فراس والمتنبي ولكلٍ منهما أحبّاءٌ وأنصارٌ فالجبهة الأولى على رأسها أبو فراس وجناحاها ابن خالويه وأبو العشائر ، والجبهة الثانية زعيمها المتنبي وجناحاها ابن جنيّ وأبو العباس النامي [3] .

ونرى أن النامي كان من جملة حساد المتنبي فلقد كان الأمير يميل إليه ويفضله على غيره من الشعراء إلى أن قدم المتنبي فقدّمه عليه ، فغاظ ذلك

---

(١) سيف الدولة ــ سامي الكيالي ــ ص (١٣٩) .
(٢) المتنبي ص (٢١) .
(٣) فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ص (١٢٤) .

أبا العباس ولم يستطيع الصبر فعاتب الأمير : لماذا يفضل عليه المتنبي ؟ ولح في عتابه ، فقال سيف الدولة : لأنك لا تحسن أن تقول كقوله :

يعودُ من كلّ فَتْحٍ غيرَ مُفْتخِرٍ وقدْ أغَذَّ إليهِ غيرَ مُحْتَفِلِ

فهذه الرواية بها إشارة واضحة للمنافسة والخصومة بين المتنبي وأبي العباس النامي ولم تكن صلة النامي بالمتنبي وحده صلة العداوة والكُرْه بل كانت صلته بالسّريّ الرفّاء الشاعر كذلك فقد هجاه السريّ الرفاء ، وأمعن في الهجاء متهماً النامي بسرقة شعره والسطو عليه حيث يقول :

أجَزّارَ بابِ الشّامِ كيفَ وجدتَني وأنتَ جزور بين نابي ومِخْلَبي
أراكَ انْتَهبتَ الشعرَ ثمّ خبأتَهُ على الناس فِعْلَ الخائفِ المترقّبِ
تباعدتُ عن باقورةَ الشّعر بالمَدى إليهِ فلم نخْرجْ ولمْ تتحَوَّبِ
ولمّا جرى الحُذّاقُ في ضوء صُبحه تعثّرتَ منه في ضَبابَةِ غَيْهَبِ
جريتَ من الإيجازِ أقربَ مسلَكٍ ومنْ ذَهَبِ الألفاظِ أحسن مذهبِ
وتزعُمُ أن الشّعرَ عندكَ أُعْرِبَتْ محاسِنُهُ عن ناطِقٍ منك مُعْرِبِ
فما بالُ شِعْرِ الناسِ ملءُ عُيونِنا وشعركَ في الأشعارِ عنقاء مغربِ[1]

ويهجوه السّري في قصيدة ثانية ويفصح فيها عن سبب عداوته للنامي مكرراً اتهامه بسرقة الشعر وترقيع شعره بما يسطو عليه :

أرى الجَـزّارَ هيّجَني وولّى وكاشَفَني وأسْرَعَ في انْكِشافي
ورَقّعَ شِعْرُهُ بعيونِ شِعْري فشابَ الشّهْدَ بالسّمّ الزّعافِ
لقد شَقِيَتْ بمُدْيَتِكَ الأضاحي كما شَقِيَتْ بغارتك القوافي[2]

---

(١) ديوان السري الرفاء ـ القاهرة ـ نشرة مكتبة القدس ص (٤٥) .
(٢) المصدر السابق ص (١٧٨) .

كما أن النامي عندما قَدِمَ الناشيء الأصغر إلى حلب أوغر عليه صدر سيف الدولة وعمل على التقليل من شأنه واتهمه بالشعوذة [1] وذلك خوفاً من منافسته له لدى سيف الدولة :

ويبدو أن النامي كان كثير الاعتداد بنفسه وبقوة شاعريته فهو يقول :

وشِعْرٍ لَوْ عَبيدُ الشّعرِ أصْغى إليْهِ لَظَلَّ لي عَبْداً عبيدُ [2]
كأنَّ لفكرةٍ نُشِرَ ابنُ حُجْرٍ ونُودي مِنْ حفيرَتِهِ لَبيدُ [3]

وهو في مِعْرَضِ مدحه للأمير ينوّه بفضله على الشعراء قائلاً :

ووَلّدَ شِعْري فِيكَ لِمَعْشَرٍ فكنْتَ عليهِمْ مِثْلَ نُعماكَ مُنعِما

وكان هذا سبباً في خصومته مع الشعراء ونظرهم إليه نظرةً ملؤها الحقد والحسد والضغينة، ولقد عبر عن ذلك السّريّ الرّفّاء في هجائه للنامي قائلاً :

وشرُّ الشِّعْرِ ما أدّاهُ فِكْرٌ تَعَثّرَ بين كَدٍّ واعْتِسافِ
لقد شَكَتِ القصائدُ منكَ ضَيْماً فهلْ حامٍ يقيها الضَّيْمَ كافي ؟
جَرَيْتَ وطرْفُها السَّبّاقُ جارٍ وضِقْتَ وباعُها الممتَدُّ وافي [4]

ولئن كان النامي على عداء مع عدد من شعراء بلاط الأمير فإنه كان على صلة مودّة ومحبّة مع نفر منهم . فلقد كانت له صلةٌ طيبةٌ بالشاعر أبي الفَرَج الببّغاء ، قوامُها ما يربطُ التلميذُ بأستاذه من صلاتٍ روحية وفكرية فقد تتلمذ الببغاء على يد النامي وروى عنه بعض أماليه [5] .

---

(١) معجم الادباء ط ٢ (٥ / ٢٣٩) .
(٢) عبيد ــ اشارة الى الشاعر الجاهلي عبيد بن الابرص بن عوف بن جشم الاسدي ــ الاعلام (٤ / ٣٢٩) .
(٣) ابن حجر ــ اشارة الى الشاعر الجاهلي امرىء القيس ، لبيد ــ اشارة الى الشاعر المخضرم لبيد بن ربيعة بن مالك ابي عقيل العامري ــ الاعلام (٦ / ١٠٤) .
(٤) ديوان السرى ص (١٧٨) .
(٥) وفيات الاعيان (١ / ٤٧) .

- ٤ -

ابن نباتة السعدي

أبو نصر عبد العزيز بن عمر بن محمد بن أحمد بن نباتة بن حميد بن نُباتة بن تيم بن مُرَّة التميمي السعدي [١] .

فالشاعر عربي النِّجارِ من قبيلة تميم المشهورة التي عُرفَتْ منذ أيام الجاهلية بالقوة والبأس ، ولقد أشار أبو نصر إلى نسبه وافتخر به قائلاً :

رَضينا وما ترْضى السيوفُ القواضِبُ نجاذِبها عن هامكمْ وتُجاذِبُ
عمائمُ طُلاّب المعالي صَوارِمٌ وأثوابُ طُلاّبِ المعالي ثَعالِبُ
ولي عندَ أعْناقِ المُلُوكِ مآرِبٌ تقولُ : سُيوفيَ هنَّ لي والمناكِبُ
فإنْ أنـا لم أجذبهم بنصالهـا فما وَلَدَتْني من تميمَ الأجادِبُ [٢]

وقد ولد ابن نباتة في بغداد حاضرة العالم الإسلامي ومركز إشعاع الفكر والنور وكانت ولادته سنة سبع وعشرين وثلثمائة [٣] وبها نشأ ونهل من ينابيع العلم والمعرفة وصدح منذ ريعان شبابه بغرر القصائد . وجمع شعره بين الرقة والسهولة وحسن السبك .

---

(١) وفيات الاعيان (٣ / ١٩٠) .
(٢) مخطوطة ديوان ابن نباتة ـ ميكروفيلم ـ مكتبة جامعة الدول العربية ص (٢٤١) .
(٣) تاريخ بغداد ـ البغدادي (١٠ / ٤٦٣) .

وكان ابن نباتة طموحاً منذ صغره باحثاً عن العلو والرفعة . ويظهر أثر ذلك واضحاً جلياً في أكثر من موطن في شعره ؛ ومن ذلك ما قاله مفتخراً:

تضاءلَ الدَّهرُ حتى ضاع في هممي ... واستفحل الهمُّ حتى صار من شيمي
فالعيش من نعَمي والموتُ من نقَمي ... وحكمةُ الفلَكِ الدّوّار من حِكَمي
والحزمُ والعزمُ في الأقوام من خلُقي ... كما الفصاحة في الأقوال من كلمي
مالي رضيتُ بقعْرِ البيتِ منزِلَـةً ... وليس ترضى سيوفُ الهند عن همي
متى أُعيدُ الدّجى صبحاً بروْنَقِها ... وأُلبسُ الشّمسَ أثواباً من السّقَمِ
لولايَ لمْ تسكُنِ الحيّاتُ من حِذَرٍ ... بطنَ التّرابِ ولا الآسادُ في الأجمِ[1]

فهذه الأبيات توحي بأنه برم بالعراق منذ صباه وأخذ يفكر في مغادرته ليحقق المجد الذي يصبو إليه ، ولهذا أخذ يفكر في المسير إلى بلاط سيف الدولة الحمداني الذي ذاعت شهرته في الآفاق وقصده الشعراء من شتّى البلاد فكتب إليه قصيدة يمدحه بها ويخبرهُ بعزمه على القدوم :

يا أيها السيف الذي بِذُبابِهِ ... تَحمي الخلافةُ ملكها وتُطارِقُ
ما أبتغي غيري إليكَ وسيلَـةً ... إني بفضلكَ والقوافي واثِقُ
لا تحسبنّي كـالذينَ رأيْتَهُمْ ... بالعيّ أفصحَ والتّمتّهُلُ شائِقُ
ولَدَيَّ من غُرَرِ الكلامِ شواهقٌ ... لا يستقلّ بها اللّسانُ النّاطقُ
إنّا بَرِمْنا بـالعِراقِ وأهْلِها ... حتى سئِمنا العيشَ وهوَ موافقُ[2]

وغادر الشاعر العراق متجهاً صوبَ حلَب ومدح الأمير عند وصوله

---

(١) مخطوطة ديوان ابن نباته ـ ميكروفيلم ـ مكتبة جامعة الدول العربية ص (٢١) .
(٢) مخطوطة ديوان ابن نباته ـ ص (٤) .

بقصيدة عصماء أشاد فيها ببطولته في موقعة « مَرعش » مع الروم وبحسن بلائه وشجاعته ومنها :

طِلابُ المعـــالي للمنُونِ صديقُ ... وطول اللّيالي للنّفوسِ عَشيقُ
ولولاكَ سيفَ الدّولةِ انقلبَتْ بنا ... همومٌ لها عندَ الزّمانِ حُقُوقُ
تُغيرُ على أحْـــداثِهِ وصُرُوفِهِ ... فتَسْبي بُنَيّاتِ الرّدى وتسوقُ
فِداؤكَ صرْفُ الدّهرِ من حَدَثانِهِ ... فما الدّهْرُ إلاّ من يديْكَ طَليق
أيعرِض مَلك الروم وقعةَ مَرْعشٍ ... وكفُّ أخيهِ في الحديدِ وثيقُ
ويُنكرُ يوماً بالأحَيدِبِ كذّبَتْ ... بهِ البيضُ حَدَّ البيضِ وهو صدوق
به شرّقَتْ من خشيةِ الموت بالحصى ... صدورٌ وفارَتْ بالقلوبِ حلوقُ (١)

ولقد عاش الشاعر في كَنَف الأمير الحمْداني ومدحه بنُخَبِ القصائد وغُرَرِ الشعر وكان نجماً لامعاً في بلاط سيف الدولة سجّل بشعره مآثره وبطولاته في المعارك التي خاضها ، وأشاد بكرمه وصلاته وعطائه الذي فاق كل حد فقال :

قد جُدتَ لي باللُّهى حتى ضَجرْتُ بها ... وكدتُ من ضَجَرٍ أُثْني على البخَلِ
إن كنتَ ترغَبُ في بذلِ النّوالِ لنا ... فاخْلُقْ لنا رغبة أوْلا فلا تُنِلِ
لمْ يُبْقِ جُودُكَ لي شيئاً أُؤمّلُهُ ... تَركَتْني أصحَبُ الدّنيا بلا أملِ (٢)

وكان ابن نباتة معتداً بنفسه صلفاً متكبراً مغروراً كثير الفخر والاعتزاز بقوته وجودة شعره وإنه ليقول :

إذا ما هززْتَ الصارمَ ابن نُباتَةٍ ... فصمّمْ بهِ إنّ الحُسام عَتيقُ

---

(١) المصدر نفسه ص (٤) .
(٢) اليتيمة (٢ / ٣٨٨) .

فلو شئتُ علّمْتُ المكارمَ شيمتي ولكنّني بالمَكْرُماتِ رَفيــقُ
أخافُ عليها أن تَجُودَ بنَفْسِها إذا ما أتاها في الزّمانِ مَضيقُ[1]

وقال :

إنَّ اللّيالي والأيّامَ لو عَقَلَتْ جرَيْنَ في الخَلْقِ عن رمحي وعن قلمي
لو تعرِفُ الناسُ قدْري في زمانهمُ صلّوا لوجهيَ أو باسوا ثرى قدمي[2]

وشاعر هذه أبياته وصفاته وتلك كلماته وعباراته لا بد أن يكثر حُسّاده والناقمون عليه خاصة إذا كانت هناك منافسةٌ على مكانة وصدارة — كما هو الحال بين الشعراء في بلاط الأمير الحمداني الذين كثرت بينهم المشاحناتُ والخصومات بحثاً عن الجاه والمركز والشهرة الأدبية — فلذا كثر حسّاد الشاعر والوشاة به هؤلاء الذين نقموا عليه صَلَفه وتكبُّره كما ساءتهم مكانته وتقريبُ الأمير له فسعَوْا بالفتنة وساروا بالنميمة وأفلحوا في الإيقاع به .

ولقد ساءت علاقة الشاعر بالأمير حتى انه اضطُرَّ للهرب من حلَب خائفاً من سيف الدولة بعد أن رثى أبا الحسن عليَّ بن الأهوازيّ الذي خرج على الأمير سنة خمس وخمسين وثلثمائة حيث قال :

قد كانَ لا تأمَنِ الظلماء مبْسمهُ ويأمنُ الطعن في الهيجاء من فشَلِهْ
يرعى النجومَ بطرفٍ ليس يُغمضُهُ حتى كأنّ نجومَ الليل من مُقَلِهْ
فهلْ تَقَرّ المعالي بعــد مَصْرَعِه عيناً وتعملُ شيئاً كان من عملِهْ؟
أرثي لها وهْيَ لا ترثي لعاشِقِها حبُّ المواريث يُلهي المرء من خلَلِهْ

---

(١) مخطوطة ديوان ابن نباته ص (٥٣) .
(٢) ديوان ابن نباته ــ مخطوطة ــ ص (٢٦) .

لا هزْهزَ المجدُ رُمحاً كان يُحْصِنُهُ ولا تسربل دِرْعاً كان من حُلَلِهِ[1]

ومكث الشاعر في بلاد الشام مختفياً بعد هربه من حلب وغادرها سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة عندما خرج قرغويه على أبي المعالي سعد الدولةبن سيف الدولة واستولى على حلب .

وقال أبو نصر يلوم الحمْدانيين ويعرِّض بهم وذلك بعد مفارقته لهم :

وما زالتْ غُواةُ بني العَدِيِّ تُضيعُ حقوقنا فيما تُضيعُ
أذَيَّتُهُمْ محرَّمَةٌ عَلَيْنا وفي أعْراضِنا لهُمُ رُتُوعُ
ويعجبهم هجوعُ الدَّهرِ عنهم ويقظتهُ إلينا والولُوعُ
فيخنقُهمْ من الضَّحك والتشفّي وتخنقُنا من الكَمَدِ الدّموعُ
إلى أنْ قامَتْ الأيامُ عَنْهم وفي أظفارها منهم نجيعُ
فلو أستطيعُ كربتهمْ تجَلّتْ ولكنْ حيلتي لا تستطيعُ[2]

وعاد الشاعر إلى بغداد ومدح أمراءها واتصل بعضد الدولة ومدحه بعدة قصائد كما أنه ورد على ابن العميد وهو في الرَّيّ وامتدحه بقصيدته التي أولها :

بَرْحُ اشْتِياقٍ وادّكارْ ولهيبُ أنْفاسٍ حِرارْ
ومَدامِعٌ عَبَرَاتُها تَرْفَضُّ عن نَوْمٍ مُطَارْ[3]

ولكن ابن العميد لم يُحسن صلته فانصرف الشاعر مغاضباً وعاد إلى بغداد وأقام فيها ، وتوفي أبو نصر بن نُباتة في سنة خمس وأربعمائة[4] .

---

(١) مخطوطة ديوان ابن نباته ص (١٥) .
(٢) المصدر نفسه ص (٢٦) .
(٣) شذرات الذهب (٣ / ٣٢ ـ ٣٣) .
(٤) تاريخ بغداد (١ / ٤٦٧) .

ولقد ترك أبو نصر ديوان شعرٍ اطّلع عليه الثعالبيّ وأورد مختاراتٍ منه وقال : وأول ما وقَعَ شعرُه إلى خراسان إنما وقع على يد أبي نصر سهلِ ابن المرزبان فإنه استصحبه من بغداد في جملة ما حصله بها من ظرائف الدفاتر ولطائفها ، وذخائرها وأخايرها وأتحفني به وهو بغبار السفر وأنا كاتب من عيونه ما يُمتّع الخواطر ويجلو النواظر [1] .

وذكر البغدادي ديوانه حيث قال : «وله ديوان روى لنا أكثره أبو الفتح بن شَيْطا المقرىء عنه» .

ولقد طرق ابن نُباتة مختلف الأغراض الشعرية من مدح وفخر وحكمةٍ ووصف وغزل ورثاء ولكنه أكثر من المدح والفخر والوصف وأجاد فوصف كُماة الحرب وأسرى الروم والفرس والمغنى والسكين وطيب الهواء وخوالج النفس .

أما منهجه في شعره فقد سلك فيه الشاعر مسلك شعراء مدرسة الشام فأحسن احتذاءها والسير على نمطها ، ولقد تنبه إلى ذلك أبو حيان التوحيدي فقال : ان ابن نباتة شاعرُ الوقت لا يدفع ما أقول إلاّ حاسدٌ أو جاهلٌ أو معاندٌ ، قد لحق عصابة سيف الدولة وعَدا معهم ورائهم حسَنَ الحَذْو على مثال سكان البادية ، لطيف الائتمام بهم خفيّ المغاصِ في واديهم ظاهر الأطلال على ناديهم [2] .

وقال البغدادي : أبو نصر أحد الشعراء المحسنين المجوّدين . كان جزَل الكلام فصيح القول [3] وقال ابن خلّكان ، وله في سيف الدولة بن حمدان غُرَرُ القصائد ونُخَبُ المدائح ومعظمُ شعره جيّد [4] .

---

(١) اليتيمة (٢ / ٣٧٩) .
(٢) الامتاع والمؤانسة (١ / ١٣٥) .
(٣) تاريخ بغداد (١٠ / ٤٦٦) .
(٤) وفيات الاعيان (٣ / ١٩٠) .

- ٥ -

الصَّنَوْبَرِيّ

أبو بكر أحمدُ بن محمد بن الحسن بن مُراد الضّبّي باتفاق معظم من ترجموا له ، ولقد خالف في ذلك ابنَ النديم [١] فسماه محمد بن أحمد ووافقه في ذلك ابنُ كثيرٍ [٢] من القدماء وآدم مِتْز من المحدثين [٣] .

وينتسب الشاعر إلى قبيلة ضبّة العربية المشهورة ولقد افتخر بنفسه وقومه فقال :

لو لمْ يكُنْ لي في ذُؤابَةِ خِندفٍ نسبٌ سوى الآدابِ كُنْتُ عريقا
أوَلَسْتُ أطولَها فروعاً في العُلا وأمدَّها في المَكرُماتِ عُرُوقا
نحنُ الذينَ بَنَتْ لنا آباؤنا مجداً يجوزُ بناؤهُ العَيّوقا

ولقد لقب بالصّنوبريّ نسبة إلى الصّنوبر ، وروي أن الصنوبري سئل عن السبب الذي من أجله نسب جدّه إلى الصنوبر حتى صار معروفاً به فقال : كان جدي صاحب بيت حكمة من بيوت حكَم المأمون فجَرَتْ له بين

---

(١) الفهرست (١ / ١٦٨) .
(٢) البداية والنهاية (١١ / ١١٩) .
(٣) الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري (١ / ٤٦٣) .

يديه مناظرة فاستحسَنَ كلامه وحدّة مِزاجه وقال له إنّك الصّنَوْبَريّ الشّكْل ، يريد بذلك الذكاء وحِدّة المِزاج . (١)

ويرى آدم متز أن لقب الصنوبري يدل على أنه هو وأبوهُ كانا يتّجِران في خشب الصنوبر (٢) .

ولد الصنوبري في إنطاكيّة (٣) وعاش في حلب مع شعراء سيف الدولة وفيها أنشده شعره ، وروى عنه أبو الحسن الأديب وأبو الحسن محمد بن أحمد بن جُمَيْع وغيرهما (٤) وكان من خَزَنَة كُتُب سيف الدولة الحمداني (٥) .

وصلة الصنوبري بسيف الدولة سابقة على قيام الدولة الحمدانية في حلب وله غُرَرٌ من المدائح التي تشيد بفضل الأمير في غزو الروم ، وهناك من يرى أن الشاعر عاش في بلاط سيف الدولة الحمداني بالمَوْصِل أميناً لخزانة كتبه ثم لما استولى سيف الدولة على حلب انتقل الصنوبري معه (٦) .

والذي أرى أن حبال الشاعر قد اتصلت بالأمير قبل أن يلي حلب واستحوذت بطولاتُ الأمير على إعجاب الشاعر فأنشد فيه قصائد رائعة مدح فيها الأمير وذكر بطولاته في محاربة الروم فقال :

وَقَصَ العِدا شرْقاً وغرْباً بالقَنا أسَدٌ لآساد العِدا وقّاصُ
كمْ بصْبَصُوا لمّا رأوْهُ حَيّةً قُرْباً إلى وِرْدِ العُلا بصباصُ

---

(١) التاريخ الكبير لابن عساكر (١ / ٥٤٦) .
(٢) الحضارة الاسلامية (١ / ٣٦٤) .
(٣) الفهرست ـ ابن النديم (١ / ١٩٨) .
(٤) النجوم الزاهرة ـ تغري بردى (٣ / ٢٨٧) .
(٥) مطالع البدور (٢ / ١٧٦) .
(٦) تتمة ديوان الصنوبري تحقيق لطفي الصقال ودرية الخطيب ص (٧) عن مجلة المجمع العلمي بدمشق (٣ / م ٤٤ / ٥٧٦) .

والروم أقعص بالجيوشِ جيوشهم إقعاصَ مَن عاداتُهُ الإقعاصُ [1]
ولجَوا المعاقِلَ والحصونَ وأترصوا إغلاقَها لو ينفَعُ الإتْراصُ
فإذا مَعاقِلُهُمْ شِباكٌ للرَّدى وإذا حُصُونُهم لهمْ أقْفاصُ
وكأنّما تلْكَ القِلاعُ مَصاطِبٌ وكأنّما حيطانُها أخْصاصُ [2]

وتحدث في قصيدة ثانية عن انتصار الأمير على الروم وحسن بلائه فقال:

بأيمَنِ طائرٍ وأصَحِّ فَألٍ وأسْعدِ كوكبٍ يغزو الأميرُ
يؤيّدُ جيشَهُ بجيوش نَصْرٍ تَسيرُ على الجناح إذا تَسيرُ
تركْتَ الروم بعضُهم قَتيلٌ يمُجُّ دَماً وبعضُهُمُ أسيرُ
فَقَدْ ماتوا وما قُبروا ولكنْ كأنَّ بيوتُهُمْ لهُمُ قُبورُ

ونحن نميل إلى القول بأن هذه القصائد أنشدها الشاعر قبل استيلاء سيف الدولة على حلب وذلك لأن الصنوبري مجَّدَ فيها بطولات الأمير في حروبه مع الروم والأميرُ بدأ حروبَه مع الروم في حلَب سنة ٣٣٧ هـ وذلك بعد وفاة الشاعر بثلاث سنوات ، بينما سبق له أن خاض الحرب ضدهم أثناء وجوده في العراق وقبل تأسيسه لملكه في حلب .

ولقد عاش الصنوبري في بلاط الأمير فقرّبه واتخذه نديماً من أخلص ندمائه وجعله أميناً لمكتبة قصره وكان الشاعر يبادل الأمير الحبَّ والتقدير .

ولقد مدح الشاعر كبار رجال عصره ووجهاءِ دولته بالعديد من القصائد كما أنه مدح آل البيت الشريف ورثى الحسين بن علي في كثير من قصائده ،

---

(١) اقعص : رمى الشيء فقتله في مكانه .
(٢) ديوان الصنوبري ص (٢٣٥) .

وتدلّ هذه القصائد على أنه كان يتشيع ومن ذلك ما قاله في قصيدة رثى بها الحسين :

يوْمُ الحسينِ ابتزَّ صبري فما منّيَ لا صبرٌ ولا صابِرُ
لهْفي على مولايَ مُسْتَنصِراً غُيِّبَ عن نُصرَتِه النّاصِرُ [1]

ولقد كان الصنوبريّ محبّاً للأسفار وطوّف في عدد من البلاد ، وتغنّى في شعره كثيراً بذكر حلب والرّقّة وقد عاش مترفاً منعّماً وكان له قصْرٌ فخْمٌ حوله الغَرْس والرَّياحين وشجرُ النّارنج [2] .

وكان صديقاً حميماً للشاعر كُشاجم الذي احتذى طريقته وسار على درْبِه وقد طلب منه يد ابنته وعزّاه عن فقدان ابنة أخرى توفيت بكراً [3] .

وقد اهتم الصنوبري بالزّهور والرّياض ومظاهر الطبيعة اهتماماً كبيراً حتى قُرِن اسمه عند النقاد بشعر الطبيعة وغلب على شعره هذا الاتجاه من وصف للرياض والنّوْرِ والطير وما شاكل ذلك ، وقال ابن رشيق : لا بد لكل شاعر من طريقة تغلب عليه فينقاد إليها طبعه كأبي نُواس في الخمر والصنوبري في ذكر النّوْرِ والطّيْرِ [4] . ويقول الخوارزمي : من روى حوليات زهير واعتذارات النابغة وروضيات الصنوبري ولم يخرج إلى الشعر فلا أشّبَ اللهَ قرنَهُ [5] .

ويعدّه آدم متز شاعر الطبيعة الأول في الأدب العربي ويقول: كان

---

(١) ديوان الصنوبري ص (١٢٩) .
(٢) الحضارة الاسلامية ص (١٢٩) .
(٣) اليتيمة (١ / ١١٨) .
(٤) العمدة (١ / ١٩٤) .
(٥) مطالع البدور (١ / ٢١٤) .

الصنوبري وهو أول شاعر للطبيعة في الأدب العربي يجمع إلى ذلك ولوعاً شديداً بالسماء والضياء والهواء مع التطلع إلى أسرارها الجميلة [1] .

ويقول الدكتور سيد نوفل : والصنوبري شاعر من شعراء العربية الممتازين في وصف الطبيعة تتوفر له عوامل التفوق الفني من الحب الصادق والمرح وإرهاف الحس والتأمل في الطبيعة وتصويرها جمة النشاط والحركة في صور إنسانية وهو نتاج طبيعي لعصره وبيئته ونشأته [2] .

ولقد نجم عن ذلك قيام المدرسة الحلبية التي مكنت لشعر الطبيعة في الأدب العباسي والتي من أعلامها كُشاجِمُ وأبو فراس والخالديان والسري الرفّاء وغيرهم .

ولقد نسج الشعراء في بغداد على غرار هذه المدرسة ونشر الوزير المهلبي طريقة الصنوبري ببغداد وكان كثير الإنشاد لشعر الصنوبري والنسج على منوال أستاذه فوصف الثلج وهو من الأعاجيب ببغداد [3] .

ولقد توفي الصنوبري سنة ٣٣٤ هـ وقدّر بروكلمان عمره بخمسين عاماً [4] ولعله اعتمد في ذلك على بيت للصنوبري يشير إلى بلوغه الخمسين قائلاً :

لقَدْ غَصَبَتْنِيَ الخمسُونَ فَتْكي وقامَتْ بيْنَ لَـذّاتي وبَيْني

ولكن العمر يمتد بالصنوبري إلى أكثر من ذلك فهو يتحدث عن بلوغه الستين قائلاً :

---

(١) الحضارة الاسلامية (١ / ٤٦٧) .
(٢) شعر الطبيعة في الادب العربي ـ الدكتور سيد نوفل ـ ١٩٤٥ ص (٢١١) مع تهذيب واصلاح .
(٣) الحضارة الاسلامية ـ آدم متز (١ / ٤٧٣) .
(٤) تاريخ الادب العربي ـ بروكلمان (٢ / ٩٧) .

وسَبِيلي وقد نَهَضْتُ بستّيـ ـنَ نَهُوضَ المُشَمِّرِ المِرْكاض

ولا نستطيع أن نجزم بالقدر الذي عاشه الصنوبري بعد الستين وعلى هذا تكون ولادة الشاعر حتماً قبل عام ٢٧٥ هـ .

ولقد ترك الصنوبري ديوان شعر عمله الصولي على الحروف في مائتي ورقة إلاّ أنه لم يصل إلينا كاملاً ولقد جمع محمد السماوي المتوفى سنة ١٩٥٠ شعره من كتب الأدب في خزانة كتبه التي خلفها بالنجف [١] . وجمع الشيخ راغب الطباخ ما استطاع جمعه من شعره في ديوان سماه الروضيات وطبعه في حلب سنة ١٩٣٢ م ويقول الشيخ الطباخ : قد أربى ما جمعه من شعر الصنوبري على ٦٠٠ بيت ويغلب على الظن أن نسخ ديوانه لم تتعدد فلذا ذهبت بها أيدي الزمان [٢] .

ولقد نشر الدكتور إحسان عباس قسماً من شعر الصنوبري وهو يقول : إن ديوان الصنوبري لم يصلنا كله وهذا القسم الذي وصلنا يشمل قصائده من قافية الراء حتى القاف ولم ترد جميع قصائد هذا الحرف — وعلى هذا يكون هناك جزءان ضائعان منه على الأقل . واحد قبل هذا القسم الموجود وواحد بعده [٣] .

كما قام الأستاذان لطفي الصقال ودرّيّة الخطيب بجمع مجموعة من شعر الصنوبري التي لم ترد في ديوانه المطبوع ونشراها تحت اسم صلة الديوان مضافة إلى الروضيات التي جمعها الطباخ [٤] .

---

(١) مجلة معهد المخطوطات ٤ / ١٩٥٨ / ٢٢٨ رقم ٢٥٧ .
(٢) الروضيات ص (٨) .
(٣) مقدمة ديوان الصنوبري ص (٦) .
(٤) تتمة ديوان الصنوبري ص (١٨ — ١٩) .

- ٦ -

كشاجم

هو الشاعر الكاتب الأديب أبو الفتح محمود بن محمد بن الحسين بن السندي بن شاهك من الشعراء المبدعين ، وقيل : إن لقبه هذا منحوت من عدة علوم كان يتقنها فالكاف من الكتابة والشين من الشعر والألف من الإنشاء والجيم من الجدل والميم من المنطق وكان يضرب بمُلَحِه المَثَلُ فيقال مُلَحُ كشاجم [١] .

وأبو الفتح من أهل الرملة من نواحي فلسطين وكان من شعراء أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان والد سيف الدولة ، وقيل : إنه كان طَبّاخ سيف الدولة وقال ابن مكي الصقَلّي صاحب « تثقيف اللسان »أن كشاجم لقب له جمعت أحرفه من صناعته ثم طلب علوم الطب حتى مهر فيه وصار أكبر علمه فزيد في اسمه طاء من طبيب وقدمت فقيل طكشاجم ولكنه لم يشتهر [٢] .

ويقول السيوطي : كشاجم اسمه محمود بن محمد بن الحسين بن السندي ابن شاهك ويكنى أبا نصر [٣] .

---

(١) شذرات الذهب (٣ / ٢٧) .
(٢) المرجع نفسه ص (٣ / ٣٨) .
(٣) حسن المحاضرة (١ / ٢٥٧) .

وأورد الثعالبي أنه محمود بن الحسين المعروف بكشاجم شاعر وكاتب مشهور من أهل الرملة من نواحي فلسطين وكان طبّاخ سيف الدولة وهو الذي أطلق على نفسه لقب كشاجم وكان ريحانة الأدب في زمانه وكان السري الرّفّاء مُغْرىً بمنهج ديوانه .

وقال المسعودي – وكان معجباً بكشاجم ومن أهل عصره – : أنشدني أبو الفتح محمود بن الحسين بن السندي بن شاهك المعروف بكشاجم – وكان من أهل العلم والدّراية والمعرفة والأدب – أنه كتب لصديق – يذُمّ لعبة النّرْدِ وكان مشتهراً بها – مقطوعة من خمسة أبيات مطلعها :

أيّهـا المُعْجِبُ المُفاخِرُ بالنّرْ دِ ويُزْهَى بهِ على الإخْوانِ [1]

وعدّه ابن النديم بين الكُتّاب والخطباء المترسلين ورجال الخَراج والدواوين وقال عنه : هو أبو الفتح محمود بن الحسين وأدبه مشهور ، وله من الكتب « أدب النديم » وكتاب « الرسائل » وديوان شعره [2] .

وقد تقدم قريباً قول آدم متز أن الصنوبري كان صديقاً للشاعر كشاجم وأنه طلب ابنته وعزاه عن فقد ابنة أخرى له توفيت بكراً [3] .

وبالنسبة لأسرة الشاعر ذكر ابن خلّكان في ترجمته لموسى الكاظم أن جد أبي الفتح السّندي بن شاهك كان من كبار رجالات الدولة العباسية وأنه كان صاحب الشرطة في عهد الرشيد ، وأن الرشيد حبس موسى الكاظم وكان هو الموكل بمدة حبسه [4] .

---

(١) مروج الذهب (٨ / ٣١٨) .
(٢) الفهرست – ابن النديم – ص (٢٠٠) .
(٣) الحضارة الاسلامية – آدم متز (١ / ٢٥٧) .
(٤) وفيات الاعيان (٥ / ٣١٠) .

ويذكر الجاحظُ السّندي بن شاهك بوصفه رجلاً من وجهاء العصر العباسي حيث يقول : حدثني إبراهيم بن السندي قال : لما كان أبي بالشام والياً أحب أن يسوس بين القحطاني والعدناني وقال : لسنا نقدمكم إلاّ للطاعة لله عز وجل وللخلفاء كلّكم أخوة ليس للنّزاري عندي شيءٌ ليس لليَمانيّ مثْلُهُ [1] .

ولقد افتخر الشاعر بقومه من الفرس وأشاد بمناقبهم ويلمس الدارس لديوانه ضرباً من الشعوبية الهادئة في مثل قوله :

قَــوْمي بَنُو ساسانَ لَيْ سَ حِمَاهُمُ بالمُسْتَبَاحِ
العــاقِدي التّيجــانِ تَضْ حَكُ عن وجوهُهمِ الصِّباحِ
والجَــاعِلِينَ عــداهُمُ لَهُمْ بمَنْزِلَةِ الأضاحي
وَوَلاؤنــــا لِلْغُرِّ مِنْ ساداتِ مُعْتَلِجٍ البِطاحِ

كما افتخر بشعره وأدبه وعلمه وأكثر من ذلك حتى لا تكاد قصيدة من قصائده تخلو من الحديث عن نفسه وأدبه .

أما أبوه فلا نكاد نعرف عنه شيئاً بل ان بعضهم يذكر أن الحسين جد الشاعر لا أبوه [2] .

ولا ندري هل السبب في عدم الترجمة لأبيه تدني منزلته الاجتماعية أم أنه قضى مبكّراً قبل أن يصل إلى مكانة مرموقة كتلك المكانة التي وصل إليها جد الشاعر .

---

(١) الحيوان (٥ / ٣٩٣) .
(٢) حسن المحاضرة للسيوطي (١ / ٢٥٧) .

ولقد رثى والده بقصيدة رائعة ضمّنهما شعوره والحُزن لفقده وتمنى أن يفْديه بنفسه وفيها إشارة إلى أن وفاة أبيه كانت مبكرة وأنه ترك وحيده يافعاً يشارف الرجولة وما يكاد :

تَرَكْتَهُ مُقْتَدِياً إلى المَعالي سُبُلَكْ
مِنْ بعْدِ ما أدركْتَ أو شارفْتَ فيهِ أمَلَكْ
وحُمِّلَ العِبْءَ الّذي كانَ أبُوكَ حَمّلَكْ

وكذلك رثى كشاجم والدته بقصيدة تموج بلواعج الحُزن والأسى والألم ومنها :

أبَعْدَ مُصابِ الأمّ آلَفُ مضْجَعاً وآوي إلى خَفْضٍ من العيش أوْ ظلّ
ستَرضع عن قبرها من دموعها بما كلّفتْه من رضاعي ومن حَملي
فأقْسمُ لو أبصرَتْني عند موْتِها وعيْنيَ تسّحّ الدّمع سجلاً على سجل
رثيتَ لنصلٍ يأخذُ الموتُ جَفْنَهُ وأُعجبْتَ من فَرْعٍ ينوح على أصلِ

ولقد قضى كشاجم فترة طويلة من حياته متنقلاً بين الأقطار الإسلامية وأقام في بعضها فترة طويلة أثّرت في شعره وأدبه ، ومن البلاد التي رحل إليها وأقام فيها دمَشْقُ والمَوْصلُ وبغدادُ والقُدْسُ ومِصْرُ . ويبدو أنه حل بها مرات عدة وكان يحن إليها كلما فارقها ، وأخذ بحظ وافر من حياة اللهو فيها وكان يتردد مع أصحابه على دير القُصير بالقرب من حُلوان ، وفي ذلك يقول [1] :

سلامٌ على ديْرِ القُصَيرِ وسَفحِه بجنّاتِ حُلْوانٍ إلى النّخَلاتِ
مَنازلٌ كانت لي بهنّ مآربٌ وكانتْ مَواخيري ومُنتزهاتي

(١) الديوان ــ ص (٢١) .

وقال :

قد كان شوقي إلى مصر يؤرّقُني فاليومَ عدتُ وعادتْ مصرُ لي دارا

ولقد كان كثير التّرحال والانتقال حتى أنّه ملّ ذلك حيث يقول :

قدْ سئِمْتُ وأُبْلِيتُ في السّيْـ ـرِ جُسُومَ المُضَمّراتِ العِتَاقِ
وسَلَكْتُ البلادَ شَرْقـاً وغَرباً وشآمـاً مَوْصُولَةً بالعِراقِ

وبعد ترحال طويل استقر به المقام في حلب في رحاب الأمير الحمداني فأغدق عليه من صِلاته ووفّر له سبل النعيم وكان قد سبق له ــ كما قلنا ــ أن اتصل بوالد سيف الدولة أبي الهيجاء عبدِ الله بن حَمْدان ومدحَه وعاش في ظله [1] . ثم صار من حاشية سيف الدولة ولا شك أنه أفاد من النهضة العلمية التي كانت حلب تشهدها آنذاك . واتصل بالعلماء والأدباء الذين كانوا يعيشون في كنف الأمير وأفاد من دروسهم وحلَقاتهم العلميّة واطّلع على خزانةِ كُتُب سيف الدولة وفي قول أنه كان أحد أُمنائِها [2] . فنال من المعارف أقصى ما يمكن أن يُنال وعبّر عن ذلك بقوله [3] :

وما زِلتُ أبغي العلمَ من حيث يُبتغى وأفتنُّ في أطْرَافِهِ أتَطَرَّفُهْ
فقَدْ صرتُ لا ألقى الذي أسْتَزِيدُهُ ولا أذكرُ الشيء الذي لستُ أعرفُهْ

وكان كشاجم كاتباً من كتّاب سيف الدولة كما ذكرنا سابقاً وهو من هذه الزاوية تظهر آثار صناعته في نتاجه الشعري كالتشبيهات والاعتداد بالكتابة ووصف الخدمات الجليلة التي تقلدها واستخدم القريض فيما يؤدي

---

(١) شذرات الذهب ــ ابن العماد (٣ / ٣٧) .
(٢) الحضارة الاسلامية ــ آدم متز (١ / ٤١٣) .
(٣) الديوان ص (١٢٧) .

بالنثر ، فاستعمله في المهاداة واستقصاء الحاجات ودعوة الأصدقاء وغيرها من أمور الحياة اليومية واستأثر وصف الكتابة والمدح منها بنصيب الأسد .

وفي حلب توثقت صلة المحبة والمودة بين كشاجم وبين الشاعر الصنوبري فقضى في صحبته أوقاتاً ممتعة كانت أبهج أوقاته وأحفلها بمُتَع الحياة المادية والمعنوية : فقد وجد فيه صديقاً وفيّاً وأخاً مخلصاً يذود عنه عوادي الزمان وقد عبر عن صداقته الحميمة للصنوبري بقوله [1] .

أنَنْسى زمَناً كُنّا بهِ كالماءِ والخَمْرِ
أليفَيْنِ حَليفَيْنِ على الإيسَارِ والعُسْرِ
يُبَكّينا على اللذاتِ في الصَّحْوِ وفي السّكْرِ
نُرى في فَلَكِ الآ دابِ كالشّمْسِ وكالبَدْرِ

ويبدو لنا أن كشاجم كان متشيعاً إذ اشتمل ديوانه على ثلاث قصائد وثلاث قطع في آل البيت . وهو يبكي في قصيدة له على آل البيت ويتفجّع على ما أصابهم من ظلم ويقول :

بكاءٌ وقَلّ غَناءُ البكاءِ على رُزْءِ ذرّيّةِ الأنْبياءِ
لَئِنْ ذلّ فيه غزيرُ الدّموعِ لقدْ عزّ فيهِ ذليلُ العَزَاءِ [2]

وكما لم يذكر المؤرخون سنة ميلاد الشاعر ، اختلفوا في سنة وفاته إلاّ أن ديوانه يحتوي على قطعة في هجاء كافور الإخشيدي حيث يقول :

تَراهُ في الصَّدْرِ من خَساستِهِ كأنّهُ في أواخِرِ المَجْلِسْ

---

(١) الروضيات : ٩٩ .
(٢) الديوان : ١٩ .

لا يفهَمُ القولَ والخِطابَ ولا يُفهِمهُ فهو أبكَمُ أخرسْ
يحكُمُ في مصرَ والشّامِ وقَدْ كان كثيراً لِمِثْلِهِ يحْرُسْ

وكافور حكم مصر من سنة ٣٥٥ ـ ٣٥٧ هـ فلا شك إذن أن كشاجم عاش عصر كافور حيث كان حاكماً لمصر ولا يستبعد أن يكون تأخر عنه وفاة ، وأن يكون تأريخُ ابن العماد لوفاته سنة ٣٦٠ هـ أقرب إلى الصواب من ذلك الذي ذكروه في وفيات ٣٥٠ أو ٣٣٠ هـ وقد خلف كشاجم ولداً عني بالأدب كأبيه وأورد الثعالبي له ترجمة وشعراً وكناه بأبي نصر متجاهلاً اسمه (١) .

ولقد ترك كشاجم مؤلفات قيمةً طُبِعَ بعضها ككتاب « أدب النديم » وكتاب « المصائد والمطارد » وديوان شعره ، كما أن كثيراً منها لم يصلنا عنها إلاّ أسماؤها مثل كتاب « خصائص الطرب » و« فن الطبخ » وقد ذكرهما حاجي خليفة في كشف الظنون (٢) وكتاب « الرسائل » وذكره ابن النديم في الفهرست . وقد جمع فيه ما كتبه من الرسائل الأدبية والأخوية (٣) .

وخلاصة القول أن كشاجم كان شاعراً مبدعاً ونابغة من نوابغ القرن الرابع الهجري وكان شعره ريحانة أهل الأدب وطوّفت أشعاره في الشرق والغرب . ولو أُنْصِف الشاعر لقُدِّم على غيره ولاحْتَلَّ المكان الرفيع بين أهل عصره لأن شعره ترجمةٌ فصيحة عن عميق إحساسه بالتجربة الحية النابضة يحياها أو يلمسها في المجتمع والطبيعـــة ولعل السبب في عدم إنصافه راجع إلى أن الشاعر كان في زمن أبي الطيب المتنبي الذي ملأ الدنيا وشغل

---

(١) اليتيمة ط ٢ (١ / ٣٠١) .
(٢) كشف الظنون ص (١١١٠) .
(٣) الفهرست ص (١٣٩) .

الناس وأبي فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة الذي كان شاعراً فذّاً على حظ عظيم من القدرة والإبداع .

وقيل إن ديوانه كان ١٠٠ ورقة [١] وروي أن السريّ الرفّاء الشاعر كان متعلقاً بكشاجم ومقلداً له جمع مخطوطات للديوان ونسخه واتّجر به وكي يزيد من بيعه أضاف إليه بعضاً من أحسن قصائد الخالديين [٢] .

ووصل ديوانه إلينا مقسماً على الأغراض مع ترتيب كل غرض على الحروف وهو من صنعة أبي بكر محمد بن عبد الله الحمدوني (من أهل القرن الرابع) الذي أضاف إليه زيادات من رواية أبي الفرج بن كشاجم أحد أبناء الشاعر [٣] . وطبع الديوان في بيروت ١٣١٣ ونشرته خيرية محفوظ في بغداد سنة ١٩٧٠ م .

---

(١) المصدر السابق ص (١٦٨) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١١٨) ، ووفيات الاعيان (١ / ٢٥٢) .
(٣) ديوان كشاجم : المقدمة ص (٦) .

- ٧ و ٨ -

الخالديان

هما أبو بكر محمد بن هاشم بن وَعْلَة بن عُرام بن يزيد بن عبد الله بن يثْرِبيّ بن عبد السلام بن خالد العبديّ ، وأبو عثمان ــ سعيد بن هاشم أخوان شاعران اشتركا في كثير من الشعر ونُسب إليهما معاً [١]. وذكر ابنُ النديم وياقوت [٢] أنهما ينتسبان إلى قرية الخالدية قرب المَوصل وأشار إلى نسبتهما للخالدية الشاعر السريّ الرفاء في مِعْرَض هجاءه لهما فقال :

ولقد حميْتُ الشّعر وهو بمعشرٍ ... رُقْمٍ سوى الأسماء والألقابِ
وضربْتُ عنه المدّعينَ وإنّما ... عن جودةِ الآدابِ كان ضِرابي
فغدتْ نبيطُ الخالديّةِ تدّعي ... شِعري وترفلُ في حبيرِ ثيابي

وقال أيضاً :

ومن عَجَبٍ أنّ الغَبيّينَ أبْرَقا ... مُغيرينَ في أقْطارِ شِعري وأرعدا
فقَدْ نَقَلاهُ عن بياض مَناسِبي ... إلى نَسَبٍ في الخالديّةِ أسْوَدا [٣]

---

(١) الفهرست ص (١٦٩) .
(٢) معجم البلدان (١ / ٣٣٨) .
(٣) نفس المصدر ص (٣٣٩) .

وذكر ابن النديم أنه قيل : أنهما نسبا إلى جدهما الأعلى خالد العبيدي[1] نشأ معاً في قرية الخالدية وانتقلا منها إلى الموصل وكانت الموصل آنذاك مقْصدَ العلماء والأدباء ، ولمعت فيها أسرة الحمدانيين واختلف إليها الشعراء ومدحوا أمراء بني حمدان وبها اشتهر الخالديّان وكانت لهما أشعار أذاعت اسْمَيهما معاً ولفتت إليهما الأنظار ، وقبلها كانا بعيدين عن كل شهرةٍ وصيتٍ[2] .

والأخ الأكبر هو محمد أبو بكر الخالدي وقد توفي سنة ٣٨٠ هـ وتوفي خوه أبو عثمان سعيد الخالدي حوالى سنة٤٠٠ هـ[3] وكانا شاعرين اشتركا في كثير من الشعر ونسب إليهما معاً[4] ولقد اتفقا في كل غاية ونطقا بلسان واحد فكأنهما أحبّا وعشقا معاً ، وتنقلا في الأمصار معاً ولم يفصل بينهما إلاّ الموت ويقول الثعالبي متعجباً من ذلك : أن هذان لساحران ، يغْريان بما يجلبان ويبدعان فيما يصفان وكان من يجَمعهما من أخوّة الأدب مثل ما ينظمهما من أخوَّة النسب فهما في الموافقة والمساعدة يحْييان بروح واحدة . ويشتركان في قرض الشعر وينفردان ولا يكادان في الحضر والسفر يفترقان وكانا في التساوي والتشابك والتشاكل والتشارك كما قال أبو تمام :

رَضيعَيْ لِبانٍ شريكَيْ عِنـــانٍ عَتِيقَيْ رِهانٍ حَليفَيْ صفاءِ[5]

وقال أبو العلاء المعري : ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر إلاّ في أشياء قليلة وهذا متعذر في ولد آدم إذ كانت الجِبِلّةُ على الخلاف وقلّة المرافقة . فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخر فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان[6] .

---

(١) بغية الطلب في تاريخ حلب ــ مخطوطة ج ١٠ بالورقة ٢٦٤ .
(٢) قدماء ومعاصرون ــ سامي الدهان ص (٣١) .
(٣) فوات الوفيات (٢ / ٢٧١) .
(٤) فوات الوفيات (٢ / ٢٧١) .
(٥) اليتيمة (٢ / ١٨٣) .
(٦) رسالة الغفران ص (٤٢٤) .

ولقد ارتحلا من المَوصل إلى بغداد واتصلا بأمرائها وقابلا العلماء والرواة واللغويين وأقاما فيها فترةً من الزمن ثم صوَّبا نحو حاضرة سيف الدولة وقبلة أنظار الشعراء والأدباء والعلماء .

ويبدو أن الخالديين قد اتصلا بالأمير الحمداني قبل رحيلهما إلى الشام إذ أن ديوانهما يحتوي على قصيدتين أنفذاها إليه قبل قصدهما حلب وصفا بهما قلعة شامخةمنيعةخضعت أمام بطولة الأمير وطَأطَأتْ هامَتُها وذلّتْ فقالا :

وخَرْقَاءَ قد تاهَتْ على من يرومُها ... بمَرقبِها العالي وجانبِها الصَّعْبِ
يزُرّ عليها الجَوّ جَيْبَ غَمَامَةٍ ... ويُلْبسها عَقْداً بأنْجُمِهِ الشّهبِ
إذا ما سرى بَرْقٌ بدتْ من خِلالِهِ ... كما لاحتِ العذراء من خللِ الحجبِ
فكم ذي جُنودٍ قد أماتَ بعَضْبِهِ ... وذي سطَواتٍ قد أبانَ على عقْبِ
سمَوْتُ لها بالرّأي يُشرق في الدّجى ... ويقطعُ في الجُلّى ويصدعُ في الهضْبِ
فأبْرَزْتُها منهوكةَ الجَيْبِ بالقَنا ... وغادرْتُها ملصوقة الخَدّ بالتّربِ[1]

ولقد نال الخالديان في رحاب الأمير حظوة كبيرة ومنزلة رفيعة إذ كانا من خواص سيف الدولة وكانا خازني كتبه[2] . ولقد أغدق عليهما هباته العميمة وصلاته الجزيلة فصدحا برائع المديح ومن غُرَر مدحهما قول أبي بكر مشيداً ببطولة الأمير :

ترى البريّةَ في حالَيْ ندىً وردىً ... يُريشُها وبحدّ السّيفِ يَبْريها
فَفِرْقَةٌ بمَناياها مُصَبَّحَةٌ ... وفِرْقَةٌ صَدَقَتْ فيها أمانيها
كأنّهُ الدّهْرُ في الآمالِ ينشرُها ... بين العِبادِ وفي الأعْمالِ يطويها

---

(١) ديوان الخالديين (١٥٥ ـ ١٥٦) .
(٢) نخبة تاريخية ـ كانار ـ ص (٢٩٣) .

إذا الصَّوارمُ عرَّتْهُنَّ غَضْبَتَهُ فإنّهُ بنفوسِ الأُسْدِ كاسِيها
يَظَلُّ بالهزِ يوم الرّوعِ يُضحكُها وبالدّماء من الهاماتِ يُبكيها
حتى كأنّ جفونَ المشركينَ خلَتْ طَيّاتُها وأعادَتْها مآقيها [1]

ولقد وقعت في بلاط الأمير مخاصمة عنيفة بينهما وبين الشاعر السرّيّ الرّفّاء ، يبدو أن سببها يرجع للمنافسة على المكانة والصدارة وقد اتّهمهما السريّ الرفاء بسرقة شعره وشعر غيره وذكر ذلك الخطيب البغدادي في ترجمته للسريّ الرفّاء حيث قال : وكان بينه وبين أبي بكر وأبي عثمان محمد وسعيد ابني هاشم الخالديّين حالة غير جميلة ولبعضهم في بعض أهاجٍ كثيرة فآذاه الخالديّان أذىً شديداً وقطعا رسْمه عند سيف الدولة وغيره [2] ولقد ذكر ذلك أيضاً ابن الجوزي فقال وكان بينه أي : السرّي وبين الخالديين أهاجٍ كثيرة فبالغا في أذاه وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره [3] . فانحدر إلى بغداد ومدح الوزير أبا محمد المهابي فانحدر الخالديان وراءه ودخلا على المهابي وثلباه وحصلا في جملة منادميه وجعلا هجّيراهما ثلبه وآل به الأمر إلى عدم القوت وركبه الدَّيْن ومات ببغداد [4] .

ولقد اتّهمهما ابن النديم كذلك بسرقة الشّعر فقال ،بعد أن أشاد بهما: وكانا إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبه حيّا كان أو ميتاً لا عجزاً منهما عن قول الشعر ولكن كذا كان طبعهما [5] .

أما الثعالبي فإنه يتهم الشاعر السري صراحة بدس الأشعار على الخالديين

---

(١) ديوان الخالدين ص (١٠٣) .
(٢) تاريخ بغداد ــ مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١ (٩ / ١٩٤) .
(٣) تاريخ بغداد ــ مطبعة السعادة بمصر ١٩٣١ (٩ / ١٩٤) .
(٤) المنتظم في تاريخ الملوك والامم ــ ابو الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ط ١ سنة ١٩٣٠ (٧ / ٦٢) .
(٥) الفهرسب ص (٢٤١) .

ويقول : ذكرت ما شجر بينهما وبين السريّ من شأن المغاضبة والمسارقة وما أقدم عليه السري من دسّ أحسن أشعارهما في شعر كُشاجم [1] .

وعلل ابن خلّكان دسّ السري لشعر الخالديين في ديوان كشاجم فقال : وكان السريّ مغرىً بنسخ ديوان أبي الفتح كشاجم الشاعر المشهور وهو إذ ذاك ريحان الأدب بتلك البلاد والسري في طريقه يذهب ، وعلى قالبه يضرب فكان يدسّ فيما كتبه من شعره أحسن شعر الخالديين ليزيد في حجم ما ينسخه ويُنَفِّق سوقه ويُغلي سعره ويشنّع بذلك عليهما ويغضّ منهما ويظهر مصداق قوله في سرقتهما .

وأقام الخالديان في حلب يرفلان في نعمة الأمير السابغة وعنايته الفائقة حتى حدثت مغاضبة بينهما وبين الأمير فتركا حلب وقصدا بغداد حيث الوزير المهلبي [2] . واتصلا بالأمير فقرّبهما واصطفاهما وانتصر لهما على السّريّ الرفّاء فأبعده وقطع صلته . ويذكر ذلك الصابي في رسائله قائلاً [3] وأحضرني — أي : السرّيّ — عدة قصائد إلى الوزير ، أي : المهلبي — أطال الله بقاءه — قد كان دفع نُسَخاً لها إلى جماعة من حاشيته — أيده الله — ليوصّلوها إليه فتخوفت أن تصل من جهةٍ غيري ويعاد عليه من هذا الحَوْض وما يتحامل فيه عليكما ويخالف إيثاري فيكما فعرضت بعض القصائد . وذكر له بعض الحاضرين ما بينه وبينكما من هذه المشاجرة فقال أدام الله عزه —بهذا اللفظ : قد كثر في الشعراء من يسمو إلى منازعتهما ويتمرّس بمجاذبتهما . ولم يصل هو إليه ولا عاد له ذكر عليه .

وعاش الخالديان حياة عبث ومجون وانصرفا إلى معاقرة بنت الحان

---

(١) اليتيمة (٢ / ١٨٣ — ١٨٤) .
(٢) رسالة الغفران — ابو العلاء المعري ص (٤٢٤) .
(٣) رسائل ابي اسحق الصابي — مخطوطة دار الكتب رقم ١٤٦٦ ص ١٨٣ ظ .

ووصف الجواري والغلمان وارتادا الأديرة والبيَع ومنازل الصَّحْب وأخْوان اللهو وخرجا على ما تعارف عليه الناس من قيم واتفق الأخوان في العيش الماجن والعبث ولقد صوّرا حياتهما هذه في شعرهما تصويراً بارعاً فكان الشعر قيثارةً عزفا عليه ألحانهما وريشةً رسَما بها أحداث حياتهما .

قال أبو بكر محمد بن هاشم في ديْرِ سعيد [1] :

سَعِدَتْ صحْبَتي بدَيْرِ سَعِيدٍ يومَ عيدٍ في حُسنه ألفُ عيدَ .
كم فتاةٍ مثْلِ المَهَاةِ سَلَبْنا ها صَلِيباً من بين نَحْرٍ وجيدِ
وغَرِيرٍ مِثْلِ الغَزالِ حَلَلْنا عَقْد زُنّارِ خَصْرِه المَعْقُودِ
وحَطَطْنا رِحالَنا بفَناءِ الـ ـهَيْكَلِ المُؤنِقِ البَعِيدِ المَشِيدِ
والرَّوابي مُشْهِرَاتٌ كَغِلْمَـ ـانٍ لنا في محبّراتِ البُرُودِ
فخُدُودٌ مُثْلَ الشّقائِقِ في اللّوْ نِ تَلِيها شقائقٌ كالخدودِ
وإذا ما الهزارُ غَرَّدَ في الغُصْ نِ حكَتْهُ الأوتارُ في التَغريدِ [2]

وقال أبو عثمان سعيد بن هاشم في الدير نفسه :

يا حُسْنَ ديْرِ سعيدٍ إذ حللتُ به والأرضُ والرَّوضُ في وشْيٍ وديباجِ
وللحمائمِ ألْحانٌ تُذَكِّرُنا أحبابنا بين أرْمالٍ وأهْزاجِ
وللنسيم على الغدرانِ رِفْرَفَةٌ يزورُها فتَلَقّاه بأمْواجِ
والخَمْرُ تُجْلى على خطّابها فترى عرائسَ الكرْمِ قد زُفّتْ لأزواجِ

---

(١) دير سعيد هو بالجانب الغربي من الموصل مطل على دجلة حسن البناء حوله تلال كثيرة حسنة العمارة ظاهرة النضارة في كل تلاية منها جنينات لرهبانه فيها طرائف الرياحين وغرائب الشجر وهو منسوب الى سعيد بن عبد الملك بن مروان ، مسالك الابصار في ممالك الامصار ـ ابن فضل الله العمري (١ / ٢٨٩) .
(٢) ديوان الخالديين ص (٤٨ ـ ٤٦) .

وكلُّنا من أكاليلِ البهارِ على ... روؤسِنا كأنوشِروانَ في التّاجِ
ونحنُ في فلكِ اللّهو المُحيطِ بنا ... كأنّنا في سماءٍ ذاتِ أبْراجِ
ولستُ أنسى ندامى وسْطَ هَيكلِهِ ... حتّى الصّباحِ غزالاً طرْفهُ ساجي
أهِزّ عَطْفي قضيبِ البانِ مُعْتَنِقاً ... منه وألْثمُ عيني لعبةَ العاجِ
وقَولَتي والتفاتي عندَ منْصَرَفي ... والشّوْقُ يزعجُ قلبي أيَّ إزْعاجِ
يا ديرُ يا ليتَ داري في فِنائكَ أوْ ... يا ليتَ أنّكَ لي في درْبِ دَرّاجِ[1]

ويبدو من شعر الخالديين أنهما كانا ضعيفي المعتقد وبهما مُرُوقٌ وزَوْغٌ عن جادّة الهدى والصواب ، وفي شعرهما دلالة على ذلك إذ يقول أبو بكر :

مَحاسِنُ الدَّيْرِ تسبيحي ومِسباحي ... وخمرُه في الدّجى صُبحي ومصباحي
أقمت فيهِ إلى أنْ صار هيكلَهُ ... بيتي ومفتاحهُ للأنس مفتاحي[2]

ويقول أبو عثمان سعيد بن هاشم الخالدي :

إنَّ شَهْرَ الصّيامِ إذْ جاءَ في فَصْـ ... ـلِ ربيعٍ أودى بحُسْنِ وطِيبِ
فكأن الورد المضعَّف في الصَّوْ ... مِ حبيبٌ يمشي بجنبِ رقيبِ[3]

وقال :

ريقَتُهُ خَمْرٌ وأنْفاسُهُ ... مِسْكٌ وذاك الثّغرُ كافورُ
أخْرَجَهُ رِضْوانُ من داره ... مخافَةً أن تُفْتَنَ الحُورُ
يلومُهُ النّاسُ على تِيهِهِ ... والبَدْرُ إنْ تاهَ فمعذورُ[4]

---

(١) ديوان الخالدين ص (١١٥) .
(٢) ديوان الخالدين ص (٣٧) .
(٣) المصدر نفسه ص (١١٠) .
(٤) المصدر نفسه ص (١٢٥) .

وللخالديين ديوان شعر ذكره ابن النديم فقال : وقد عمل أبو عثمان شعره وشعر أخيه قبل موته ، وأحسب غلاماً يعرف برشأ عمله أيضاً نحو ألف ورقة [1] ولم يصل إلينا هذا الديوان كاملاً ولقد قام الدكتور سامي الدّهّان بجمع بعض شعر الخالديين ونشره بعنوان ديوان الخالديين في دمشق سنة ١٩٦٩ .

وقد ترك الشاعران عدة تصانيف منها كتاب « حماسة شعر المحدثين » « وأخبار أبي تمام » و « محاسن شعره » و « أخبار الموصل » وكتاب في أخبار شعر ابن الرومي و كتاب « اختيار شعر البحتري » وكتاب « اختيار شعر مسلم بن الوليد » [2] ولهما كذلك كتابا « الأشباه والنظائر » والتحف والهدايا » [3] ولهما أيضاً كتاب اختيار شعر ابن المعتز والتنبيه على معانيه [4].

---

(١) الفهرست ص (٢٤٠) .
(٢) الفهرست ص (١٦٩) .
(٣) مقدمة ديوان الخالدين ص (٢٥) .
(٤) الاشباه والنظائر (٢ / ٥٣) .

obeikandl.com

— ٩ —

السّريّ الرّفّاء

أبو الحسن السريُّ بن أحمد بن السري الكِنْدي الرّفّاء الموصلي ، ويعرف بالسري الرفاء وهو الاسم الذي غلَب عليه ولُقّب بالرفّاء لأنه كان يرْفُو الملابس ويطرّزها بعدما عمل صبيّاً مع الرفائين بالموصل [١] :

وقد وصف مهنته في شعره فقال :

وكانت الإبرَةُ فيما مضى صائِنَةً وجْهي وأشعاري
فأصبَحَ الرّزْقُ بها ضيّقاً كأنّهُ منْ ثُقْبها جاري [٢]

وهو عربي النّسب من قبيلة كِنْدة التي نزلت شماليَّ الجزيرة العربية وفي شعره ما يشير إلى نسبة « الكِندي » هذه إذ افتخر بقومه في قصيدة رثى بها أباه فقال :

والدَّهْرُ يطْرُقُ بالفوا دحِ أو يُصبِّحُ بالدهارسْ
غازٍ يُظَفّرُ بالنّفُو سِ وبالذّخيراتِ النّفائسْ
وملوكِ كِنْدةَ حطَّ عنْ تلكَ الأسرَّةِ والقرابِسْ

---

(١) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(٢) المرجع نفسه (٢ / ١١٧) .

ما زالَ يُعْمِلُ فيهُمُ طعْنَ المصالتِ والمُخالِسْ
إنّي لمَنْ قَوْمٍ مَضَوْا بُشمٍ المآثِرِ والمعاطِسْ
ما نيلَ مجدَهُمُ وأنّى يلمسُ الجَوْزاء لامسْ[1]

ولقد ذكره الثعالبي من جملة شعراء الموصل فقال ما نصه : ومن جملتهم أحمد الكنديّ المعروف بالرفاء[2] .

وبالنسبة لسنة ولادته لم تذكرها المراجع أو تحدّدها ، ولكن يمكن أن نحددها بالتقريب بالاستعانة ببعض النصوص الشعرية للشاعر .

ذكر في قصيدة مدح بها الوزير المهلبي أنه جاوز الأربعين من عمره وأن أيام الشباب قد مرت وولت وذلك حيث يقول :

أتَكتُمُ أسرارَ الهَوى أمْ تُذيعُها وتحفَظُها بعدَ النّوى أم تضيعُها
مَهاةٌ ولكنْ للفِراقِ لِقاؤها وشمْسٌ ولكن للغروبِ طُلُوعُها
سلامٌ على الأيّامِ تبيضُّ بَيْنَها صنائعُ سود والعِذارُ شَفيعُها
تلفّت بعْدَ الأربعين وأسرعَتْ عِجالاً فلمْ يرْبَعْ عليَّ سريعُها[3]

فالبيت الرابع به إشارة واضحة إلى أنه قد جاوز الأربعين عندما مدح الوزير المهلبي ، والذي علينا أن نحدده هنا هو متى مدح الشاعر الوزير .

لقد ترك السري بلاط سيف الدولة وانحدر إلى بغداد بعد أن آذاه الخالديان

---

(١) ديوان السري الرفاء ص (١٥٢ ـ ١٥٣) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(٣) ديوان السري (ص ١٦٤) .

أذىً شديداً وقطعا رسمه عند سيف الدولة وغيره [1] . ولعل رحيله إلى بغداد ومَدْحَه للمهلبي بهذه القصيدة كان في عام ٣٥٠ هـ ونحن نميل إلى تحديد هذا التاريخ لأن ديوانه يحتوي على قصائد قالها في مدح سيف الدولة وذكر بها بعض غزواته إلى بلاد الروم ومواقعه معهم عند خَرْشَنة . وكان ذلك كما تذكر المصادر التاريخية سنة ٣٤٩ هـ .

قطع سيف الدولة رسمه فورد بغداد في أواخر سنة ٣٤٩ هـ وأوائل سنة ٣٥٠ هـ ومدح الوزير بهذه القصيدة . وما دام عند نظمه لهذه القصيدة قد تجاوز الأربعين من عمره فمن الممكن أن نفترض أن مولده كان في العقد الأول من القرن الرابع الهجري . هذا مع العلم بأن الوزير المهلبي قد مات إبّان ذهابه لفتْح عمان سنة ٣٥٢ هـ [2] وهذا ينفي صحة قول الثعالبي أن السري قصد بغداد بعد وفاة سيف الدولة ومدح بها المهلبي الوزير وغيره من الصدور [3] .

وذلك لأنه من الثابت أن وفاة سيف الدولة كانت بعد وفاة المهلبي بأربع سنوات .

نشأ السريّ في الموصل ودرس القرآن في الكُتّاب وتعلم شيئاً من النحو واللغة والأدب والحديث وقرأ الشعر وتذوقه ولم تمْضِ مدةٌ طويلة حتى بدأ ينظمه ويجيده [4] .

ويبدو أن ثقافة السري كانت محدودة جداً فلم يهتمّ بالعلوم التي كانت سائدةً في عصره ، ولم يحفل بالثقافات المترجمة ، من منطق وفلسفة وعلم

---

(١) تاريخ بغداد (٩ / ١٩٤) .
(٢) مسكويه (٦ / ١٩٧) .
(٣) اليتيمة (٢ / ١١٩) .
(٤) وفيات الاعيان (١ / ٣٥٨) .

كلام وغيرها ولذلك قال عنه ابن النديم: « ولا يحسن من العلوم غير قول الشعر »[1] .

كان في بداية شبابه يعمل رفّاء في سوق الرفّائين ولكن مهنته لم تكن تدر عليه ربحاً مجْزياً ، ولذلك كان يضيق بها ، ونحن نلمس ذلك في خلال أبيات أرسلها إلى صديق له فسأله عن خبره أثناء عمله رفاء فكتب إليه[2] .

يكفيكَ من جُملةِ أخباري يُسري من الحبّ واعساري
في سُوقة أفضلُهُم مُرْتد نَقْصاً فَفَضْلي بينهم عاري

ولقد ترك السري الرفاء عملية الرفو واحترف مهنة صيد السمك ، وهو يتحدث في شعره عن فقره وتعبه في سبيل الحصول على قوته بشبكة غبراء عتيقة فيقول :

وشاحبِ اللّبْسَةِ والأعْضاءِ أشْعَثَ نائي العهْدِ بالرَّخاءِ
أفضى به العُدْمُ إلى الفضاءِ فوَجْهُه للضَّحّ والهواءِ
أغْبَرُ يحوي الرّزق من غبراءِ خفيفَةَ ثقيلة الأرجاءِ
كأنّها هَلْهَلَةُ الرّداءِ كلّفَها لحْظُ بَنات الماءِ
بأعْيُنٍ لم تؤتَ منْ إغْفاءِ كثيرة تُرْبي على الإحصاءِ
وأقْبَلَتْ تملأ عينَ الرّائي بكلّ صافي المتنِ والأحشاءِ
أبْيَضَ مثلِ الفِضّةِ البيضاءِ أوْ كذِراعِ الكاعبِ الحسناءِ[3]

وعندما قوي شعره وجاد وبزّ غيره من شعراء الموصل آثر أن يمدح ويتكسب

---

(١) الفهرست ص (٢٤١) .
(٢) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(٣) ديوان السري الرفاء ص (٦) .

بشعره ، وقد قضى باكورة الشباب [1] . فاتصل في بداية الأمر بناصر الدولة وأولاده ومن حوله من الأمراء الحمدانيين ، وقد أجْروا له رسماً شهرياً من المال ولكن سرعان ما حسده الشّاعران الخالديّان الموصليّان اللذان شعرا بجودة شعره ومنافسته لهما في التقرب من الأمراء فأوغرا قلب ممدوحيه عليه ونجحا في قطع رسمه الشّهري ولعلهما كانا السبب في ذلك وأخذ يتظلم إلى الأمراء ويشكو حاله فقال يخاطب الأمير أبا عبد الله الحسين بن سعيد وكان يُجري عليه جارياً في كل شهر فقطعه :

قـلْ للأميرِ الماجِدِ السّامي على أكفائِهِ
والمرتقي أمم العلا ءِ بفَخْرِهِ وسنائِهِ
والمستبدّ بعزْمِهِ كالسّيف عندَ مضائِهِ
إنّ الكَريم إذا بنى لم ينْوِ هدمَ بنائِهِ
وإذا أفادَ صنيعُهُ بقيتُ بطولِ بقائِهِ
وإذا اجتنى غرّ المديحِ سقاهُ من أنْوائِهِ
أنا غرسَهُ والغرس يذ وي إن خلا من مائِهِ
يا خير مأمول يعو ذُ مؤمل بفنائِهِ [2]

ولكنه لم يجد أذناً صاغية تسمع تظلّمهُ ، فلذلك شدّ رحاله وقصد حلب حيث ندوة الأمير الحافلة بالأدباء والشعراء والعلماء .

يقول الثعالبي : ولم يزل السّرّي في ضنك العيش إلى أن خرج إلى حلب واتصل بسيف الدولة واستكثر من المدح له فطلع سعْدُه بعد الأفول وبَعُدَ

---

(١) اليتيمة (٢ / ١١٧) .
(٢) ديوان السري الرفاء ص (١٣) .

صيته بعد الخمول وحَسُنَ موقع شعره عند الأمراء من بني حمدان ورؤساء الشام والعراق [1] .

ومكث السري في حلب أكثر من عشر سنوات مدح خلالها الأمير الحمداني بغرر قصائده وعيون شعره فأغدق عليه الأمير العطاء وأجزل له المِنَح والصّلاتِ .

والسري يتحدث عن نِعَمِ الأمير الحمداني وفضائله قائلاً [2] :

سأشكُرُ أنعامَ الأميرِ وفضْلَهُ ... فقد ألبساني أنْعُماً وفضائلا
غدوْتُ وآمالي الظّماء تقودُني ... إلى جُودِ كفّيه فعادتْ نواهلا
وحلّيْتُ أبكارَ القصائدِ باسمهِ ... ولولاهُ أضحَتْ ثيِّباتٍ عواطلا

ولكنَّ سعادة السريّ شابها الألم وفرحته اعتراها الحزنُ ، وذلك عندما تغير قلب الأمير عليه ، ونفر منه فلم يعد يلقى عناية أو رعاية كما كان حاله في أول مجيئه — حتى أنَّ سيف الدولة منعه من إنشاد شعره في مجلسه فقال السري مخاطباً الأمير في قصيدة مدحه بها وذكر بعض غزواته :

علامَ حرَمْتَني إنشادَ شِعري ... لديكَ وقدْ تَناشده الأنامُ
ولي فيكَ الّتي تُلغى القوافي ... إذا ذُكرتْ ويمتهنُ الكلامُ
يقصّرُ عن مداها الربح جرْياً ... وتعجزُ عن مواقعها السّهامُ
تناهَبَ حُسْنَها شادٍ وحادٍ ... تحُثّ بها المطايا والمُدامُ
لكَ النّعَمُ الّتي جُلّتْ ولكنْ ... دُنُوّي منك والقُرْبُ التّمامُ

---

(١) اليتيمة (٢ / ١١٩) .
(٢) ديوان السري الرفاء ص (٢١٦) .

وتشريفي القِيامَ إزاء مَلْك ملوكَ العالمينَ لهُ قِيامُ
وإحضاري إذا حبرتَ شعراً لتسمع ما أحبر والسلامُ[1]

ويصل الأمر بعداء الأمير للشاعر ونفوره منه أن أخذ يؤخر أعطياته له فيقول الشاعر :

خَطَراتٌ هي العُلا وارتياحُ وغُدُوّ إلى الوغى ورواحُ
وإياد تحُثّهُنّ عِـدات مثل ما حثّتِ السحاب الرّياحْ
يا حُسامَ الإله يا جبل الدّنْ يا ويا مجرها الذي يُستماحُ
عبْدُ نعماكَ منذُ شهرينِ ثاوٍ فاعتلاقٌ بحياته أو سراحُ[2]

ويبدو أن السبب في نفور الأمير الحمداني من الشاعر يرجع إلى سعاية الخالديين اللّذين تبعا السّرّي وقدما إلى رحاب سيف الدولة فاشتدت العداوة بينهما وبينه مرة أخرى وكان بينه وبين أبي بكر وأبي عثمان محمد وسعيد ابني هاشم الخالديين حالةٌ غير جميلة ، ولبعضهم في بعض أهاج كثيرة فآذاه الخالديان أذىً شديداً وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره[3] . وهكذا بدأت المنافسة بينهم من جديد وأخذ السري يهجوهما ويتهمهما بالسرقة وحفلت قصائده بالتظلّم منهما . ولكن السري في نهاية الأمر لم يجد بدّاً من مغادرة حلَب فودّعها قاصداً بغداد في أواخر سنة تسع وأربعين وثلاثمائة واتصل بالوزير المهلبي وغيره من الصدور[4] .

ومكث مدة ليست طويلة في كنفه ومدحه بعدد من قصائده كما مدح

---

(١) ديوان السري ص (٢٥٤) .
(٢) المرجع نفسه ص (٧٥) .
(٣) البغدادي (١٩٤/٩) .
(٤) اليتيمة (٢ / ١١٩) .

كبار رجال بغداد وصدورها من كُتّاب وأصحاب دواوين من أمثال أبي إسحَق إبراهيم بن هلال الصابي الكاتب وأبي الخطاب المفضَّل بن ثابت الضَّبّي الكاتب [1] .

وقَبْعَ السري في بغداد يرفلُ في معيشته الجديدة ونعمته التي عثر عليها عند أكابر بغداد مدة قصيرة من الزمن إذ وصل الخالديان إلى بغداد واستطاعا أن يتقرَّبا من الوزير المهلبي وأصبحا من جملة ندمائه وحلا محل السري وابتدآ في الوقيعة به عنده ، ويقول البغدادي : ودخلا إلى المهلبي ينادمانه وجعلا هجّيرَاهما ثَلْب سريّ والوقيعة فيه [2] . وتمكنا من إبعاد السري عن المهلبي وإقصائه عن كبار كتابه أيضاً . فقُطع رسمه وافتقر بعد أن كان في رغَدِ العيش ، ويقال : انه عَدِمَ القوت فضلاً عن غيره فجعل يعمل في الوراقة والنَّسْخِ ويورقُ شعره ويبيعهُ ثم نسخ لغيره بالأجرة وافتقر السري حتى أنه لم يعد بإمكانه دفع إيجار داره واضطر أن يستدين لدفع الإيجار [3] .

ولقد صوَّر السري سوء حالته في بغداد وفقره وشقاؤه فقال :

شبابُ المرءِ ثَوْبٌ مُسْتَعارُ ... وأيّامُ الصّبا أبداً قِصارُ
طوى الدهرُ الجديدَ من التصابي ... وليس لما طوى الدهرُ انتشارُ
ولم نُعْطِ المُنى في القربِ منهُ ... فكيفَ بها وقد شَطَّ المزارُ
صُدُودٌ في التقارُبِ واجتنابٌ ... وشوقٌ في التّباعُدِ وادّكارُ
يطولُ إذا تقاصرَتِ اللّيالي ... ويقرُبُ إنْ تباعدتِ الدّيارُ
لَحَى اللهُ العِراقَ وساكنيهِ ... فما للحُرّ بينهُمُ قَرارُ
وجادَ الموْصِلَ الغرّاءَ غيثٌ ... يجودُ للبُرُوقُ بهِ انْسِفارُ

---

(١) ديوان السري (ص ٤١ ، ١٩٧) .
(٢) تاريخ بغداد (١٩٤/٩) .
(٣) المرجع نفسه (٩ / ١٩٤) .

أأقْعُدُ بالعِراقِ أسيرَ دَهْرٍ غريباً لا أزُورُ ولا أُزارُ ؟ [1]

ولقد ندم السري على تركه حلب ورحيله عنها فأرسل يمدح سيف الدولة ويعتذر إليه من انصرافه بغير إذنه فقال [2]:

أُؤنّبُ الشّوقَ فيهم وهوَ يضطَرِمُ وأسْتَقِلُّ دموعَ العينِ وهْيَ دَمُ
كانَ انصرافيَ جُرْماً لاكفاءَ لهُ عندي وأيّ لبيبٍ ليس يَجترِمُ
رأيٌ هَفَا هَفْوةً زَلّتْ لها قدَمي وما هَفا الرّأيُ إلاّ زلّتِ القَدَمُ
هو اضطرارٌ أزالَ الاختيارَ وهَلْ يختارُ ذُو اللّبّ ما يُردي وما يَصِمُ
وكيفَ يجتنِبُ الظّمآنَ مَوْرِدُهُ عَمْداً إذا راحَ وهوَ الباردُ الشّبِمُ
صَفْحاً فلوْ شُقّ قلبي عن صَحيفَتِهِ لظلّ يُقرَأُ منهُ الخوْفُ والنّدَمُ

ومات السري فقيراً بائساً [3] . واختلف المؤرخون في سنة وفاته فذكر البغداديّ أنه توفي بعُسَيد سنة ستين وثلاثمائة [4] وقال ياقوت أن وفاته كانت ببغداد سنة اثنتين وستين وثلاثمائة [5] ويبدو أن هذه السنة هي الصحيحة لأنها ذُكِرَتْ في أغلب المصادر . وروى ابن خلكان أنه قيل أن وفاة السري كانت سنة أربع وأربعين وثلاثمائة . وهي رواية ضعيفة لا يوثق بها .

ولقد خلف السري بالإضافة لديوان شعره كتاب « المحب والمحبوب » و « المشموم والمشروب » [6] وهو أربعة أقسام في المحبين وأشعارهم والأطياب والأزهار وأسماء الخمر وله كتاب « الديرة » ذكره ياقوت في معجمه [7] .

---

(١) تاريخ بغداد (٩ / ١٢٩ ــ ١٣٠) .
(٢) الديوان ص (٢٤٦) .
(٣) تاريخ بغداد ــ البغدادي (٩ / ١٩٤) .
(٤) معجم الادباء (١١ / ١٨٥) .
(٥) تاريخ الادب العربي ــ بروكلمان ط ٢ (٢ / ٩٧) .
(٦) معجم الادباء (٤ / ٢٢٧) ، ووفيات الاعيان (١ / ٢٥٢) وكشف الظنون (١٦١١) .
(٧) معجم الادباء (٤ / ٢٢٧) ووفيات الاعيان , ١ / ٢٥٣) .

— ١٠ —

الببغاء [١]

هو عبد الواحد بن نصر بن محمد أبو الفرج المخزومي الحنبطي المعروف بالببّغاء . كان شاعراً مجوّداً وكاتباً مترسّلاً مليح الألفاظ جيّد المعاني حسنَ القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف وغير ذلك [٢] . وذكره الثعالبي وقال : هو من أهل نصيبين وبالَغَ في الثناء عليه [٣] .

فالشاعر عَرَبيّ صريح في نسبه ينحدر من قبيلة مخزوم الشهيرة ولُقّب بالببّغاء لِلُثْغَة كانت في لسانه [٤] . أو لحسن فصاحته [٥] وقد رمز أبو إسحق الصابي — الذي كان بينه وبين الببّغاء مكاتبات — إلى لقب الشاعر في قصيدة بعثها إليه فقال :

أبا الفَرَجِ أسلم وابقَ وانعم ولا تزل ... يزيدكَ صرْفُ الدَّهْر حظّاً إذا نقصْ
فحوشيت يا قسّ الطّيورُ فصاحةً ... إذا أُنشِدَ المنظومُ أودُرس القصصْ
مِن المنْسرِ الأشفى ومن حزّةِ المُدى ... ومن بُندقِ الرّامي ومن قصّة المقصْ

---

(١) الببغاء : بفتح فسكون وقد تشدد الباء الثانية مفتوحة ــ القاموس جـ ٣ مادة ببغا .
(٢) تاريخ بغداد ــ البغدادي (١١ / ١١) .
(٣) اليتيمة (١ / ٢٣٦) .
(٤) المرجع نفسه (١ / ٢٣٦) .
(٥) وفيات الاعيان (٢ / ٥٣٥) ، شذرات الذهب (٣ / ١٥٣) .

وكتب إليه أيضاً أُرجوزةً في صفة الببّغاء وذكر تسمية الشاعر بها :

أنْعَتُهـا صَبِيحَةً مَلِيحةً ناطِقَةً بـاللّغَةِ الفَصيحةْ
غَدَتْ من الأطيارِ واللّسانُ يوهِمُني بـأنها إنْسانُ
نُسِرِكُ فيها شاعِرُ الزَّمانِ والكاتبُ المعروفُ بالبَيانِ
وذاكَ عبدُ الواحدِ بنُ نَصرِ تقيهِ نفسي عاديات الدَّهرِ[1]

وذكر في إحدى رسائله إلى الببّغاء أحسن ما قيل في مدح الألثغ وأشار إلى لُثْغهِ حيث قال :

أبا الفَرَجِ استَحقَقْتَ نعتاً لأجْلِه تسمّيْتَ من بينِ الخَلائقِ ببّغا
بياناً مُنيراً كاللّجَينِ مُضَمّنـاً نُضاراً من المعنى أُذيبا وأُفرِغا
وما هجّنْت منكَ المحاسن لُثْغَةٌ وليس سوى الإنسان تلقاهُ أَلثغا
أتَعْرِفُها فيما تُقَدّمُ خـاليـاً لبعيرٍ إذا ما صاح أو جملٍ رغا[2]

ووصف أبو الفرج الببّغاء وذكر أنها لقَبٌ له فقال :

إقْدامُها ببـأسَها الشّديدِ أسْكَنَها في قَفَصِ الحَديدِ
فهْيَ كخودٍ في لباسِ أخضرِ تأوي إلى خركاهةٍ لمْ تُستترِ
ووصَفَها المُعجزُ ما لا يُدركُ ومثْلُهُ في غيرها لا يملكُ
لوْ لمْ تكنْ لقَباً لمْ أخْتَصِرْ لكنْ خشيتُ أن يقال منتصرْ[3]

وقد نشأ الشاعر في نصيبين ، تلك المدينة الساحرة الجمال التي حباها الله

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٥٣) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٥٥) .
(٣) اليتيمة (١ / ٢٥٤) .

بالحسن الحلاّب وبها ترعرع وتعلم ثم اتصل في عنفوان عمره وريعان شبابه بسيف الدولة [1] . ولقد أغفل المؤرخون الذين ترجموا له سنة ولادته فلم يذكرها الثعالبي أو البغدادي أو ابن خلكان أو ابن عساكر أو السمعاني أو غيرهم .

ونرجح أنها كانت حوالى سنة ٣١٤ هـ وذلك لأن أبا الفرج روى أنه اضطر أن يتأخر بدمشق عن سيف الدولة وقد سار عنها في بعض وقائعه لأن الخطر كان شديداً على من أراد اللّحاق به وأصحابه حتى أن ذلك كان طريقاً إلى النهب وطول الاعتقال . ويقول انه اضطر إلى اعمال الحيلة في التخلص والسلامة بخدمة من بها من رؤساء الدولة الإخشيدية ويذكر أن سنه كانت في ذلك الوقت عشرين سنة [2] . ونحن نعلم أن سيف الدولة قد دخل دمشق بعد حربه مع الإخشيديين سنة ٣٣٤ هـ وما دام الشاعر يذكر أن عمره آنذاك كان عشرين عاماً فلذا نرجح أنه ولد حوالى سنة ٣١٤ هـ .

ولقد ذكر الشاعر أنه عاد إلى دمشق مع سيف الدولة ولعله يقصد في ذلك دخول الأمير دمشق مرة ثانية أثناء حروبه مع الإخشيديين [3] .

ولقد دخل الشاعر في نعم الأمير السابغة ولازمه طَوال حكمه ونعمَ بصلاته العميمة وعطاياه الجزيلة فتبدّل حاله من فقر إلى غنىً ومن ضيق يدٍ إلى سِعَة في العيش وخفْض في الحياة وهو في إحدى قصائده يشيد بكرم الأمير الذي رد عنه الإقلال حتى لم يبقَ له أمل يرجوه ، وذلك حيث يقول :

فصرْتُ أمسكُ عن أوصاف نعمته ... عجزاً وينطقُ عن آثارها حالي
لمّا تحصّنْتُ من دهري بمعْقِلَةٍ ... سَمَتْ بحملانه ألحاظُ إقبالي

---

(١) المرجع نفسه (١ / ٢٣٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٣٧) .
(٣) المصدر نفسه (١ / ٢٤٤) .

وواصَلَتْني صلاتٌ منه رحْتُ بها أختالُ ما بين عِزّ الجاهِ والمالِ
فلينْظُرِ الدَّهْرُ عُقبى ما صبرتُ به إذ كان من بعض حسّادي وعذّالي
ألمْ أكِدْهُ بحُسْنِ الانتظارِ إلى أن صُنْتُ حَظّي عن حَلٍّ وترحالِ
رُوَيدَ جودكَ قد ضاقتْ به هِمَمي وردَّ عنّي برغم الدَّهْرِ إقلالي
لمْ يَبْقَ لي أملٌ أرجو نداكَ به دهْري لأنّك قد أفْنَيتَ آمالي [1]

ولقد لبث الشاعر في رحاب الأمير طَوال حكمه وبقي في كنفه حتى وفاته وكان نجماً لامعاً من نجوم النّدوة السّيفية شدا ببطولات الفتى الحمداني في شعره وإنشائه ، فهو بالإضافة لبروزه في الشعر كان كاتباً من كتّاب الأمير المشهورين ، ولقد روى الخوارزمي أن أبا الفرج كتب إلى سيف الدولة يشكرهُ وقد خلع عليه : ان شكري نعمة الله عليّ بما جدده من ملاحظة سيّدنا الأمير ـ أيده الله ـ حالي، وتداركه بطب التطول مرض آمالي ـ وما لا أومّل مع المبالغة والإغراق فيه فكّ نفسي من رِقّ أياديه ، غير أني أُحسِن لها النظر وأُجمِل عندها الأحدوثة والخَبَر ـ بالدخول في جملة الشاكرين والارتسام بفضيلة المخلصين ، إذ كان قد نصر نباهتي على الخمول واستنقذني من التعبّد للتأميل [2] .

وحدّث أبو الفرج الببغاء أنه كان يعمل كاتباً للأمير وأنه كتب للبلدان والرعية بخير تمام الفداء الذي تم في رجب سنة خمس وخمسين وثلثمائة بين الأمير الحمْداني والروم [3] .

ونثره جيد المعاني تغلب عليه الصناعة والتنسيق .

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٤٧) .
(٢) تاريخ بغداد ـ البغدادي (١١ / ١٢) .
(٣) نشوار المحاضرة (٢ / ٢٩٦) .

ولقد أقام شاعرنا في حلَب بعد وفاة سيف الدولة فترة من الزمن ومدح ابنَه سعد الدولة قائلاً :

لا غَيْثُ نِعماهُ في الورى خلَب الـ ـبَرْقَ ولا وَرْدُ جودِهِ وشَلُ
جادَ إلى أنْ لمْ يُبْقِ نـائلُهُ مالاً ولمْ يَبْقَ للورى أمَلُ [1]

وفي سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ارتحل إلى الموصل حيث عدة الدولة أبو تَغْلِب بن ناصر الدولة . فأجمل برَّه وتقبَّله مدَّة مقامه بحضرته إلى أن سار عنها إلى مدينة السلام سنة تسع وخمسين وثلاثمائة وجعل يعاود زيارة الموصل مرة ومدينة السلام أخرى [2] . وتقلبت به الأحوال في منادمته بهما الملوك والرؤساء وفي إخفاقِه مرة ونجاحِه أخرى [3] .

ويبدو أن حالة الشاعر قد ساءت بعد وفاة سيف الدولة فأصابه الفقر وعضه الدهر بنابه ولهذا يشكو قائلاً :

نَبَتْ بي داري وفَرَّ العَبِيـ ـدُ وأوْدَتْ ثيابي وبعتُ فروشي [4]
وكُنْتُ أُلَقَّبُ بالبَبَّغا ءِ قديماً فقد مَزَّقَ الدَّهرُ ريشي
وكانَ غـذائي نَقِيُّ الأرُزّ فَها أنَا مُقْتَنِعٌ بالحَشيشِ [5]

وقد توفي أبو الفرج الببغاء سنة ثمان وتسعين وثلثمائة [6] .
وقال الثعالبي سمعت الأمير أبا الفضل عبد الله بن أحمد الميكالي يقول

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٦٦) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٤٩ ـ ٢٥٠) ، زهر الآداب (١ / ٢٢١) .
(٣) وفيات الاعيان ـ ابن خلكان (١ / ٥٣٥) .
(٤) ليس في اللغة فروش . فهو استعمال مولد .
(٥) المنتظم (٧ / ٢٤٢) .
(٦) وفيات الاعيان ـ ابن خلكان ـ (١ / ٥٣٥) .

عند صدوره من الحج ودخوله بغداد في سنة تسعين وثلاثمائة : رأيت بها أبا الفرج الببغاء شيخاً عالي السن متطاول الأمد ، أخذت الأيام من جسمه وقوته ولم تأخذ من ظرفه وأدبه [1] .

ولقد أورد صاحب اليتيمة طائفة من غرر شعره ونثره وقد ذكر أبو علي المُحَسِّنُ التّنوخيّ ديوان الببغاء فقال : اخترت من شعره ما يصلح للمكاتبة في الحوادث أو الأمثال أو معنى لم يُسْبَق إليه وتركتُ أكثرَ محاسنِ شعره وحُسْنِ نظمه وبلاغته وعذوبة كلامه وأكثر إحسانه موكلاً إلى من ينظرُ في ديوانه [2] .

كما أن البغدادي ذكر أنه روى له جماعة شيئاً كثيراً من شعره [3] وقيل : إن ديوان شعره كان ٣٠٠ ورقة ووقف ابن النديم على مجموعة من رسائله [4] . ولم يصل إلينا ديوان الببغاء ولعله ما زال يقبع في إحدى دور الكتب العالمية ينتظر من يخرجه إلى حيز النور ولقد نشر فولف Phwolff شعر الببغاء الذي ورد في اليتيمة وعلق عليه سنة ١٨٣٤ م .

وتدل المختارات الشعرية التي تمكّننا من الوصول إليها والعثور عليها في مظانّ الكتب والمصادر على أن الشاعر قد أحسن القول في المدح والغزل العفيف والماجن والوصف والخمرة والروضيّات وسلك طريق اللهو والعبث وأخذ بأسباب اللذة والمجون كقوله :

كمْ مِنّة للظّلامِ في عُنُقي بجَمْعِ شمل وضمّ مُعتنقِ
وكمْ صباح للرّاحِ أسلمَني منْ فَلَق ساطِع إلى فَلَقِ

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٣٦) .
(٢) نشوا رالمحاضرة (١ / ١٠٣) .
(٣) تاريخ بغداد ـ البغدادي (١١ / ١١) .
(٤) الفهرست ص (٢٤٠) .

فعاطنِيها بِكْراً مُشَعْشَعَةً كأنهـا في صِفاتِها خُلُقي[1]

وكقوله يتحدث عن ليلة ماجنة أمضاها في أحد الأديرة :

ولَيْلَـــة أوْسَعَتْني حُسْناً ولهواً وأُنْسا
ما زِلْتُ ألْثُمُ بَدراً بهـا وأشربُ شَمْسَا
إذْ أطْلَعَ الدَّيْرُ سَعداً لمْ يُبقِ مُذْ بانَ نحْسا
فصارَ للرّوحِ مِـنّي روحاً وللنّفس نَفسا[2]

وللببغاء منزلةٌ شعرية رفيعة ، ولقد عرض عليه أبو فراس قبل موته ديوانه ونفى منه شيئاً كثيراً .

قال الببغاء : عرض عليَّ أبو فراس ديوانه فكلّ ما استضعفْناه فنفاه وما اجتمعنا على استجادته أقرَّه وحرّره في نسخة تداولها الناس[3] .

وقال الثعالبي عن شعره ونثره : في النظم له كلام بل مُدامٌ فنثره مستوْف أقسام العذوبة ، وشروط الحلاوة والسهولة ونظمُهُ كأنه روضة منوّرة تجمع طيباً ومنظراً حسناً[4] .

وقال البغدادي : كان شاعراً مجوَّداً جيّد المعاني[5] .

وقال ابن خلّكان : وأكثر شعر أبي الفرج جيداً ومقاصده فيه جميلة[6] .

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٦٣) .
(٢) اليتيمة (١ / ٢٤١) .
(٣) نشوار المحاضرة ـ التنوخي (١ / ٢٢٥) .
(٤) تاريخ بغداد (١١ / ١١) .
(٥) وفيات الأعيان (١ / ٢٠٢) .
(٦) وفيات الاعيان (١ / ٢٠٢) .

— ١١ —

الوأواء الدمشقي

أبو الفرج بن أحمد الغسّاني الدمشقي الملقب بالوأواء . وكان الوأواء في بدء أمره منادياً في دار البطيخ بدمشق ينادي على الفواكه وما زال يشعر حتى جاد شعره وسار كلامه ووقع فيه ما يروقُ ويشوقُ ويفوق [١] .

وأبو الفرج عربي في نسبه ينحدر من سلالة الغسانيين الذين قطنوا بلاد الشام قبل الإسلام . وكان فقيراً في بدء حياته يعمل منادياً في سوق الفواكه وذكر القِفْطيّ نقلاً عن ابن عبد الرحيم في طبقات الشعراء أن الوأواء : كان في أول أمره أحد العامة رَدّاداً في فِنْدق كان جابياً فيه ، وكان يتولى بيع الفاكهة ويجني أثمانها . ولم يكن من أهل الأدب ولا ممن يعرف بقول الشعر [٢].

أما بالنسبة إلى لقب الوأواء فيبدو أنه علق به لطبيعة عمله القائم على المناداة وذكر صاحب التاج أن الوأوأة هي صياح ابن آوى أو صياح الكلب[٣]. ويبدو لنا أن الوأواء قد ولد في دمشق ونشأ بها ولعل كلمة الدمشقي التي تتكرر في المصادر التي ترجمت له تفيد أنه ولد فيها ونشأ بها أو قطنها حيناً من الزمن . والمصادر لا تفيدنا الكثير عن نشأته ولا تتحدث عن مكان ولادته

---

(١) اليتيمة (١ / ٢٧٢) .
(٢) المحمدون من الشعراء ــ علي بن يوسف القفطي ص (٥٥) .
(٣) تاج العروس (١/١٣٠) .

ولكن لعله كما يقول الدكتور سامي الدهان عمل في الصباح لصناعته وأكب في الرياض وغير الرياض على قراءة الدواوين قراءة ظهر أثرها في شعره فقد حفظ من أبي نُواس وعُمَر بن أبي ربيعة وابن المعتز وأبي تمام والبحتري وأعجب بالمتنبي [1] .

واتصل أبو الفرج بالشريف العقيقي ومدحه ، ويقول القفطي وكان أول شيء عمله قصيدته الميميّة في أبي القاسم العقيقي العلويّ التي أولها [2] :

تَظَلَّمَ الوَرْدُ مِنْ خَدَّيْهِ إذْ ظُلِما

فاستحسنها وأعطاه عشرين ديناراً ، وتسامع الناس بها فانتشر بينهم ذكره واستطابوا طريقته في شعره فتوفر على ذلك وفارق ما كان فيه [3] .

ولا شك أن هذه القصيدة هي أول شيء عمله وشهَرَهُ بين الناس وهذا ما أراده القفطي بقوله ؛ أول شيء أي أنها أول ما اشتهر له ، ولا شك أن الشاعر قد قال شعراً كثيراً قبل هذه القصيدة ولكنه لم يشتهر لأنه لم يكن في مدح أمير أو استعظام وزير أو تمجيد حاكم أو خليفة .

ويبدو لنا أن الوأواء قد ودَّع أيام الفقر والفاقة بعد اتصاله بالعقيقي الذي عطف عليه ورعاه ومنحه العطاء وقدم له العون ويسر له الشهرة فذاع اسمه وعرف خبره بين الشعراء .

ويخبرنا التاريخ أن ممدوح الوأواء كان من ذوي المراتب العالية في دمشق ويذكر ابن العديم أن الشريف كان على اتصال بسيف الدولة ، ويقول

---

(١) مقدمة ديوان الوأواء ص (١٠) .
(٢) الشريف ابو القاسم احمد بن ابي هشام العقيقي كان من أعلام الشيعة وهو ممدوح الوأواء وتوفي ٣٧٨هـ.
(٣) المحمدون من الشعراء ص (٥٥) .

إن العقيقي قَدِم وافداً على الأمير سيف الدولة وكان مكرماً له وكان العقيقي محترماً عنده [1] . واتصل الوأواء الدمشقي بالأمير الحمداني عندما استولى على دمشق ٣٣٤ هـ وطرد الإخشيديين منها ومدح الشاعر الأمير ونغنّى بشجاعته وكرمه وقال [2] :

فتىً ألْبَسَ الأيامَ ثوبَ شبيبة ... وكانتْ قديماً في جَلابيبِ شائبِ
تظلُّ المنايا تحتَ ظِلّ سيوفِـه ... إذا خطَر الخطّيُّ بين الكتائبِ
لَئِنْ أقعدتْ أسْيافَهُ كلَّ قائم ... فقد أرجلتْ أرماحُه كلَّ راكبِ
إذا أبرقَتْ ضرباً سيوفُكَ أمطرتْ ... رؤوسَ الأعادي أرض المصائبِ
بما انهَلَّ من كفّيك في ذلك النّدى ... وما حملتْه من قَنَاً وقواضبِ
أرِحْها قَليلاً كي تَقَرَّ فـإنها ... من الضربِ أمسَتْ ناحلاتِ المضاربِ

وبعد عودة الأمير الحمداني إلى حلب أثر الصلح الذي عقد بينه وبين الإخشيديين قصد الوأواء بلاط الأمير ووفد على حلب باحثاً عن العطاء والشهرة لعله يصبح من الفحول الذين قصدوا الأمير من شتى الأمصار وعاشوا في كنفه وتفيئوا ظلاله الوارفة ونعموا بسخائه وكرمه ونهلوا العلم من ينبوع المدرسة الحلبية الثرّ التي نشأت بفضل رعاية سيف الدولة وحدبه على الشعر والأدباء والعلماء .

وقد امتدح سيف الدولة بقصائد ثلاث تبلغ أبياتها المائة ولبث في حلب ردحاً من الزمن كان خلالها يحن إلى دمشق فهو يقول [3] :

ها قَدْ تبدَّلْتُ أوطاناً بأوطانِ ... عمداً وفارقتُ خُلاّناً بخُلاّنِ

---

(١) بغية الطلب خ (١ / ٢٣) .
(٢) ديوان الوأواء ص (٢٢ ـ ٢٣) .
(٣) ديوان الوأواء ص (٢٣١) .

وعندما أصابته علة أثناء إقامته في حلب قال [1] :

عليلُ القَلْبِ والبَدَنِ بعيدُ الدّارِ والسّكنِ
بكى وشَكا تَشَتُّتَهُ عنِ الأحْبابِ والوَطَنِ

ثم عاد إلى دمشق بالجوائز الكثيرة التي أغدقها عليه الأمير الحمداني فانصرف إلى اللهو والمجون ، يلهو ويعبث ويقضي أيامه بين أفياء الغياض والرياض إلى أن بلغ الشيخوخة .

ولقد سكت أغلب المؤرخين عن تاريخ وفاته فالثعالبي لم يذكر سنة وفاته كما أن الذهبي والقِفْطيّ وابنَ عساكر وابنَ فضل الله العُمَري وابنَ خلّكان أغفلوا ذكر سنة الوفاة ولم يذكرها من القدماء إلاّ ابن شاكر الذي ترجم للوأواء وقال : انه توفي سنة ٣٩٠ هـ تقريباً [2] .

أما بروكلمان فذكر أن الوأواء توفي سنة نيف وسبعين من القرن الرابع الهجري [3] .

ويتفق الدكتور سامي الدهان مع بروكلمان في تحديد سنة الوفاة ويذهب مذهبه ويعلل ذلك بأن الشريف العقيقي ممدوح الوأواء توفي سنة ٣٧٨ هـ ولم تتأخر عنه وفاة الوأواء ولو كان غير ذلك لبكى الشاعر ممدوحه ورثاه ونحن لا نجد لذلك أثراً في شعره . ولهذا يؤثر أن يتخذ موعد وفاة الشاعر سنة ٣٧٠ هـ أي قبل وفاة ممدوحه في سن مقبولة [4] .

غير أني لا أتفق مع صاحبي هذا الرأي وذلك لأن الوأواءقد انصرف كما

---

(١) المصدر نفسه ص (٣٤٦) .
(٢) فوات الوفيات (٢ / ١٤٦) .
(٣) تاريخ الادب العربي (٢ / ٧٩) .
(٤) مقدمة ديوان الوأواء ص (١٧) .

قلنا إلى حياة اللهو والعبث ولذلك لم يهتم برثاء ممدوحه لأنه شغل بالحياة التي أرادها كما أن كثيراً من الشعراء الذين عاشوا في رحاب الأمير الحمداني ورغِدوا بنعمه السابغة وصلاته الجزيلة لم يرثوا الأمير بعد وفاته .

والوأواء عاش عيشة خليع ماجن وكان يبحث عن اللذة قائلاً [1] :

نَلْ مِنَ اللّذّاتِ ما تَبْغيهِ والله غَفُورُ

وديوان الوأواء حافل بغزله المذكر والمؤنث والحب العفيف والفاجر ووصف الخمرة وهو يغالي في حبها حيث يقول [2] :

اسْقِياني ذَبيحَةَ الماءِ في الكَأْ سِ وكُفّا عنْ شُرْبِ ما تسْقيان
إنّني قدْ أمِنْتُ بالأمْسِ إذْ مُتُّ بها أنْ أموت موتاً ثانيَ
قهْوَةٌ تَطْرُدُ الهُمومَ إذا ما سكَنَتْ في مَواطنِ الأحْزانِ

ويبدو أن الوأواء قد عاد إلى خالقه في أواخر حياته وندم على ما اقترفت يداه من آثام . فهو يعلن التوبة ويطلب المغفرة [3] :

اللهُ يَعْلَمُ أنّي هائمٌ قَلِقٌ عليَّ ثوبانِ مِنْ ضُرٍّ ومن سقمِ
وقد نَدِمْتُ على ما كانَ من زَلَلي وأنْتَ أعظمُ مَن يُرْجى من الألمِ
فاغْفِر لعبدِكَ يا مولايَ زَلّتَهُ أو لا فحكمك فينا غيرُ محتكَمِ

ونرى أن الوأواء كان من شعراء الشيعة لأن شعره حافل بالألفاظ والتشبيهات التي تدل على ذلك فهو يقول [4] :

---

(١) ديوان الوأواء ص (٤٦) .
(٢) فوات الوفيات (٢ / ٣٠٣) .
(٣) ديوان الوأواء ص (٢٠٦) .
(٤) مختارات الوأواء ـ طبعة الاسكورال ـ مخطوطة مصورة رقم ٤١٧ أدب (٤٦) .

إنّي سألْتُكَ بالنّبيّ محمّد ووصيِّهِ الهادي الأمين المهتدي
وبسحْرِ مَنْطِقِكَ الذي سُلْطانَهُ حُكْمٌ يجورُ على القلوبِ ويعتدي
ألاّ هَجَرْتَ بفيكَ قولكَ سيّدي مولىً يقولُ لعبدِهِ يا سيّدي

ويقول في قصيدة ثانية [1] :

عَلَوِيٌّ من أهل بيتٍ تعالوا دُونَ أقدارِهِمْ على الأقْدارِ
ضَرَبَتْ كَفُّهُ له في رُبا المَجْ دِ رواقاً مُطَنَّباً بالفَخارِ

ولقد ذكر الثعالبي ديوان الوأواء وقال [2] : إنه اطلع عليه واختار منه مختارات كما أن كراتشكوفسكي المستشرق الروسي نشر الديوان مع ترجمة روسية ودراسة عنه ببتروجراد سنة ١٩١٤ م ونشر سامي الدهان الديوان مستعيناً بمخطوط النجف في دمشق سنة ١٩٥٠ م .

ولقد قال عنه الكتبي : أنه شاعر مطبوع منسجم الألفاظ عذب العبارة حسن الإشارة جيد التشبيه [3] .

كما قال عنه القِفْطي : وتسامع الناس بشعره فانتشر بينهم ذكره واستطابوا طريقته [4] .

---

(١) المرجع نفسه (٨) .
(٢) اليتيمة (٢ / ٣٠١) .
(٣) فوات الوفيات (٢ / ٣٠١) .
(٤) المحمدون من الشعراء ص (٥٥) .